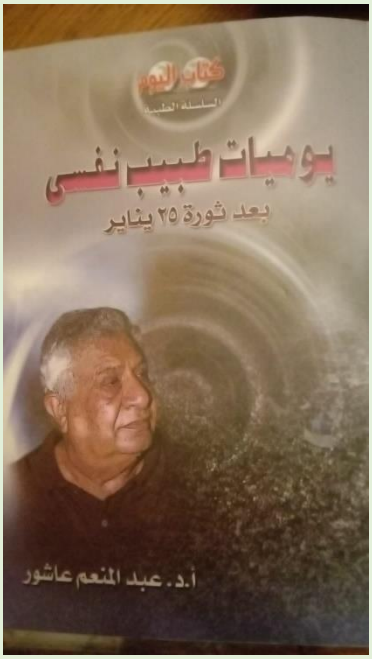

يَوْمِيَّاتُ طَبِيْبٍ نَفْسِيٍّ

بعد ثورة 25 يناير

أ.د. عبد المنعم عاشور

مقدمـــــة

كنت أحسب الرؤية الذاتية هم شخصي احتمله نعيماً و عذاباً لوحدي .. ..

وكنت مشغولاً بممارسة الحياة ؛ و لا وقت لتسجيلها ؛ و لا داعي .. .. ..

حتى عبرت السابعة و السبعين و تكالبت عليَّ أسباب و دعوات : ☜ حياتك مفعمة بالأحداث التي تستحق التوثيق ؛ ☜ التاريخ المعاصر و طبعاً القديم لا يصنعه الحكام و الحروب بقدر ما تصنعه شهادات البشر في كل المواقع ؛ ☜ هكذا قررت الأستاذة الدكتورة الكاتبة فاطمة موسى ؛ ☜ انظر إلى سوق النشر في فرنسا اليوم ؛ ☜ مازلت املك من الطلاقة اللغوية ما يقدر على التعبير عن مخزون معرفي مضمون صادق .. ☜ أنت تهرب من الكتابة عن نفسك لنفسك ؛ و ها قد جاءت الفرصة لتكتب للآخرين ..

الإلحاح على الكتابة للمجتمع تتمشى مع اتجاهاتي الفيلأنثروبية .. اريد أن اشرح للغير و الشباب أصلاً الدروس التي تعلمتها طريقةً و موضوعاً لعلهم يستفيدون .. اريد أن اسجل شهادتي على التاريخ من المواقع التي كنت فيها و الأحداث التي كنت طرفاً فيها ..

و أهم من هذا كله أن أساهم في الحوار الجاري اليوم تحت ظروف "الفوضى الخلاقة" ؛ التي هي مرحلة في تاريخ الأمة مدركاً تماماً كم هي تشكل فرصة للتغيير و التطوير ..

هل وضحت الرؤية ؟

هي ليست مجرد استدعاء لذكريات قديمة اعتماداً على مادة محفوظة تتوخى الموضوعية العالية ؛ إنه انتقاء من مكتبة الذاكرة ..

أعطني مفتاحاً من خيالك أو واقعك ادلف بك إلى كنوز المخزون المفهرس .. هذه هي القوانين المكتشفة حديثاً .. سأنتقي باستخدام مفاتيح خزائن الذاكرة ؛ و المفتاح قد يكون حدثاً أو شخصاً .. ..

وبانفتاح مخزن الذاكرة المعين سأصل إلى ما ابحث عنه وأريد إخراجه إلى عالم الحاضر ؛ وسأجد نفسي انزلق في دهاليز متشابكة من المعلومات والعواطف المشتركة المفصلة .. قد افرح بما لقيته وقد احزن ؛ ثم ماذا افعل بما عثرت عليه من دفينة المعلومات المختزنة ؟ أعيد ترتيبها اربطها بالذاكرة الحديثة التي تنتمي لنفس المخزن مستعملاً نظام فهرسة ملائمة وحافظة لهذه المعلومات الجديدة من التبدد

و قد استخدم هذه المادة المسترجعة في تكوين رسالة توجه للخارج .. للجميع أو للخاصة ..

تأخذ الرسالة إلى الآخر صورة خلق أدبي أو فني ؛ و ليس هذا ما حاولت استعماله لأنني لا املك وسائله ..

أخرجت ما أردت في صورة تقريرية .. ..

يحكمني في هذا الإفصاح ما نمى معي من أسلوب في تنظيم المعلومات و تحليلها ؛ فأنا أولاً رجل علم ؛ قد يلحظ البعض لمحة شاعرية في التعبير ؛ و هذه موهبة لم تكبر كفاية لكي اكتب شعراً .. ..

تعمدت الغموض و الاختصار في بعض الأسماء و الأحداث ؛ و هذا من تراث ممارسة أخلاق المهنة الطبية و العسكرية ؛ الأفكار المركزية التي في طريقها إلى ذاكرتي الثابتة الممتدة هي في الحب و الطب و الحرب ؛ فهي ما عشت من أجله و فيه و به ؛ و خبراتي فيها ذاتية جداً مرتبطة بالواقع .. ..

السياق الذي جرى به كل نشاطي قد يكون عاماً و مشتركاً مع آلاف الأسر و ملايين المصريين ؛ و لكن هذا هو الإطار .. ..

شخصيتي و عواطفي و مهاراتي و صحتي و إنجازاتي كلها تطورت في حدود هذا السياق ..

لقد ولدت مرتين !! ؛ الأولى يوم 34/10/11 ؛ في القاهرة ؛ و قادت حياتي مشروعات أمي ..

.. .. وولدت مرة أخرى يوم 67/6/7 بممر متلا بسيناء .. ..

د. عبد المنعم عاشور

الفصل الأول

لماذا اكتب ؟

يقولون إن هناك موضة أن يكتب العاديون سيرهم الذاتية ؛ مئات منها طبعت في باريس العام الماضي فقط .. قادة حركتنا الفكرية يشجعونني على الكتابة ؛ بل لعلهم يأمرونني بالكتابة ؛ يقولون لهذا علاقة بفهم التاريخ ؛ يقولون حياتي مليئة بما يستحق بل يجب أن يسجل ؛ يقولون لغتي و أسلوبي يسمحان لي بالكتابة ؛ يدلونني على أمثلة من مجتمعنا كتبت و نشر لها ؛ اشعر بالخجل ؛ أتهرب ..

أرواية اكتب أم وقائع ؟! .. يوميات .. أحداث لا تنسى .. ذكريات مؤلمة .. ذكريات سعيدة .. دروس من الماضي .. ربط الحاضر بالماضي .. تبرئة .. تطهير .. توثيق .. تنظير ؟ .. قالوا : اكتب اكتب و لا تفكر ..

الحرب .. الحب .. العقم .. العبث .. البعث .. المسؤلية الفردية .. العقد الاجتماعي .. الرعاية الإلهية .. تيمات تلف فكري .. الله .. الشيطان .. الملك .. الناس هي ما تؤثر عليَّ .. ..

أمي أهم شخصية في حياتي ؛ مشروعها الهائل و آثارة المدمرة ! .. أبي في ظل أمي .. عبد الناصر و ثورته و أنا .. السادات و براجماتيته و أنا .. من الجيش للجامعة .. من الجامعة إلى المجتمع .. ..

بصراحة أرى أن لا أحد يقرأ في هذا البلد ؛ و أن الذين يكتبون إنما يعبرون عن أنفسهم و يريحون "احتقاناً تعبيرياً" إن صح التعبير .. و يموتون بغيظهم و ما تبقى من إحباطاتهم ؛ إلا من عفى عنهم الله فاستفادوا من إبداع يباع لبعض المسلسلات في التليفزيون أو الهلضمة شبه الفلسفية شبه الدينية في كتب و كاسيتات .. ..

لست منهم فإبداعاتي تجد طريقها في عملي الطبي ؛ حيث كان موقعي .. كنت أجد فراغ الإبداع جاهزاً بارزاً ؛ و ما علي إلا أن أملأه ؛ أو كنت أجد درنات الإبداع تحت سطح أرض الواقع ؛ فما علي إلا أن انبشها للنور و الاستهلاك .. ازعم أني تركت مواقع كثيرة و قد تغيرت إلى الأبد .. و لم اهتم أبداً بوضع خاتمي أو بصمتي أو خرطوشة اسمي على ما أبدعت .. بل لعلي كنت اتعمد هذا لأضلل أعدائي "ست و آخرين" عن موضع أبنائي فيغفل عنهم فيعيشون .. و عاشوا كما عاش الهرم الأكبر شاهداَ و رمزاً ؛ أو كما عاش النيل مؤسسة حياة و إبداع و تجديد ..

و كنت دائماً ملولاً ؛ لا اصبر على طعام واحد ..

اخترت منذ بداية وعيي الإنسانَ موضوعاً لدراستي و عملي ؛ كان هو الطريق إلى الله .. و كان هو السوق لكسب الرزق ؛ و كان هو المتعة الكبرى في البحث عن الذات و عن استكشاف المجهول .. الطب .. الإنسانيات .. الأدب .. الفن .. الاقتصاد .. السياسة .. الشعر .. القرآن .. الفلسفة .. الدين ؛ و كل المعارف عن الإنسان : القراءة .. الحديث .. المراقبة .. السفر .. المراسلة .. البحث .. المعالجة .. التورط العقلي .. التورط العاطفي ؛ كلها وسائل لمعرفة المزيد عن الإنسان محور الحياة ؛ و محور حياتي .. كلما ازددت علماً بالإنسان زاد عطفي عليه و إدراكي كمأزقة .. لم اتعجب قط لما يفعله إنسان ما ؛ فقد كان يسهل علي أن افهم .. أتقنت – إلى حد ما يزيد كلما زادت خبرتي – من تفسير ووصف سلوك و مشاعر البشر و الحيوانات .. **ووقفت كما يقف جميع المشتغلين بالعلم عند باب الوصف .. و لم الج – و لم يلج أحد – غرفة التفسير و الماهية و الهدف النهائي ..** و لم احاول في رحلة المعرفة بالإنسان امتهنت طب علله الجسدية و النفسية .. ساعدت آحاداً من طالبي العون ؛ و لعلي خيبت ظن عشرات منهم ؛ فما أقل ما نقدمه .. يؤتي الحكمة من يشاء ؛ و ينفق الناس على طلب الحكمة أقل القليل من مال ووقت و جهد ؛ قارن هذا بما ينفقونه في التحارب و الترفيه و تخمة البطون و "الكيف" .. ..

لعل بي غروراً ! ؛ و لعلها تمسك بقيمة العالم الطبيب و أهمية أن يتفرغ لاجتهاده بعيداً عن ضغوط التكسب و الابتزاز .. كم حلمت بفرصة اضمن فيها رزقاً حسناً و اتفرغ لعطاء مبدع .. يوتوبيا لم أرها تتحقق حتى أيام الأطباء أبناء الآلهة الفراعين .. ..

الإنسان و الحرب كانت في وعيي منذ الصغر ؛ في بني سويف في شمال صعيد مصر وصل مهاجرون من الإسكندرية تحسباً لوصول رومل في أربعينات القرن العشرين .. و كانت المدينة تغرق في الظلام ؛ و النوافذ الزرقاء ؛ و صيحات الإنذار كل ليلة .. و كانت في

السماء تتراقص أضواء الأنوار الكاشفة للطائرات .. و في المنصورة كان وراء بيتنا في "خرابة" مخبأ بني خصيصاً لاحتماء المارة به .. كنا نلعب حوله و نقضي حاجتنا في زواياه المظلمة !! شقاوة أطفال .. كان الجزار يزن اللحم بورق ثقيل الوزن تحايلاً على التسعيرة ؛ و كانت الصحف تتهكم على "ورق اللحمة" هذا ؛ و تكتفي بالتهكم .. اذكر "بوستر" يشرح للناس ما يقوم به الحلفاءُ من إعادة الجني "المحور" إلى الزجاجة ؛ و سمعنا عن أغنياء الحرب ؛ و كنا نشتري الجاز بالكوبون ؛ و تموين كثيراً بالبطاقة .. .. ..

كنا نرى جنود الحلفاء في القاهرة و سط البلد ؛ و في أطرافها : الهرم .. الهايكستب .. العباسية .. طريق السويس .. ..

كان لي عم يعمل في "الأورنص" ؛ و يوم أعلن عن انتهاء الحرب العالمية الثانية في يوم من مايو 1945 ؛ ولدت لنا أخت جميلة ؛ و كنت "رب الأسرة بالنيابة" لسفر والدي ؛ و انطلقت أعدو في شوارع المنصورة ابحث عن طابع بريد ؛ و أسعفني به مدرس بمدرستنا

رآني زائغ البصر في الطريق فسألني عن شأني و قدم لي طابع البريد من حافظة جيبه ؛ أتجد في هذه الحادثة ما أجد من معانٍ ؟

تختفي أشباح الحرب من أمامي حتى تعود أشد بروزاً أيام 67 ؛ يوم 5 يونيو 1967 هو الفاصل في حياتي .. هكذا اعتقد و الله أعلم .. للوصول إلى ذلك اليوم لابد من حكاية عبد الناصر و طالب الطب الذكي .. استولى عبد الناصر على قيادته لنا منذ الأيام الأولى ؛ فقد عرض نفسه علينا في صورة مبهمة تستوعب كل شئ وأي شئ .. قال لنا إنه سيحقق كل أحلامنا في الإصلاح ؛ و ما علينا إلا أن نسلمه زمامنا ؛ و توعد كل من خرج عليه أو لم "يكن معه" .. يذكرني هذا الآن بمقولة بوش الابن .. وتعلمنا الدرس من عدة حوادث وعدة مواقف ؛ **ولم يكن لدينا سوى المراهنة عليه ؛ راهنت عليه والتحقت بالجيش متطوعاً** ؛ وقادتني الخدمة إلى 5 يونيو 67

كنت طبيباً وعسكرياً ناشفاً كما يقولون .. حافظت على سلاحي و معنويات رجالي .. اكتسبت احترام القادة ؛ و كنت احترمهم كذلك ؛ من العميد قائد اللواء ؛ إلى الفريق "كامل الأوصاف" – اسم الدلع – في القيادة الميدانية ؛ إلى المشير عامر "الجدع" – صاحب شعار برقبتي يا ريس – إلى الراجل الكبير عبد الناصر ..

"الحنجلة" : هي أبلغ تعبير عن عمليات الجيش المصري في سيناء ؛ أي استفزاز بلا نية حقيقية في العدوان أو الاشتباك في معركة ؛ و لكنها "قلبت بغم" كما يقولون ؛ و كان علينا أن نقرر الحرب و نبدأها بعد مبادرة إسرائيل بضرب طيراننا 5 يونية في قرار صحيح و سليم ؛ لو كنت مكانهم لفعلت ذلك .. ..

"الفلسفة" : هي ما لجأ إليه الجيش المصري ؛ إخلاء لمنطقة القتل في سيناء و احتماء بقناة السويس كمانع دفاعي .. ..

و الفلسفة فعل تعمله بإرادتك ؛ و يساعدك العدو عليه بفرقعة كرباجه على ظهرك .. ..

في رأيي لم يكن بالإمكان أحسن أو أبدع مما كان .. ..

انكسرت "أبوة عبد الناصر لنا العرب جميعاً" ؛ و كان لابد من فطام و نضج و تحمل مسؤلية ..

كان لقائد وحدتي تعليق على ما حدث : "الراجل الكبير تكون غلطته كبيرة" .. و شاركته الرأي ؛ و لأني – و معظم رجال الجيش للأمانة – كنا نراهن على عبد الناصر ؛ فلم نتخل عن قيادته لنا قيد أنملة ؛ و احتفظنا بأمل و لو واهن في أنه قادر على مهام القيادة في المرحلة المقبلة .. و قد تجرأ هو وصفي بجراءة أوضاعه مع المشير عامر و رجاله .. الصراع على قمة السلطة لم ينزل إلى المجتمع ؛ و لم تقم حرب أهلية .. وقفنا جميعاً وراء عبد الناصر من أجل "تحرير مصر" ؛ و ليس من أجل فلسطين .. ..

إن كان عبد الناصر و رجال ثورته أضاعوا سيناء و هيبة الجيش المصري ؛ فكان على المصريين جميعاً أن يستعيدوا كل ذلك ؛ و بالحرب و ليس بتسليم عبد الناصر ؛ أو بالتنازل عن مشروعهم القومي العربي .. و قد حدث هذا ؛ و خرج السادات من عباءة عبد الناصر ليسترجع سيناء مقابل الخروج من ساحة الصراع العربي الإسرائيلي .. ..

مرة أخرى أقول لم يكن في الإمكان أبدع مما كان ؛ فقد كان الخطر الأكبر على الأمة هو توقف التنمية سنوات طويلة ؛ و حالة من "الأنيميا الاقتصادية" من نزيف الحرب التي طالت ؛ و طال الإنفاق عليها و لا عائد منها .. ..

يوم 67/6/6 و أنا عائد من الكونتلا أقسمت ألا اترك زمامي لفكر واحد ؛ و أن اعود من "الأجازة السياسية" إلى العمل المسؤل ..

اشتركت في بناء أول خط دفاع ؛ و اشتركت في إعادة بناء القوات المسلحة ؛ و اشتركت في حرب الاستنزاف ؛ و اشتركت في الاستعداد للعبور ؛ و اشتركت في معركة العبور ؛ و كان السادات قد أراد أن تكون آخر حروب الجيش المصري ..

و لم اضيع وقتاً اطلب فيه "نقل موقعي" من الجيش إلى الجامعة ؛ و لم اتردد في قبول التنازل عن مزايا كثيرة ؛ و قبول تحديات جديدة في عملية الانتقال هذه .. كنت "عقيداً" ؛ وحول الأربعين ؛ و لم يكن ذلك سهلاً ؛ و لكنني كنت دائماً ملولاً ابحث عن الإبداع

حينما اجتاح شارون لبنان عام 1982 كان هذا مفهوماً لي ؛ فهو الاستغلال الأمثل لخروج مصر من المعركة ؛ و هي نذالة ؛ و لكنها نذالة معلنة ؛ فقد أصرت إسرائيل على أن تتعامل مع كل طرف عربي على حدة !

ظل قلبي معلقاً بمطاردة العرب – نعم العرب – عمان 1980 ؛ و المارونيين 82 صبرا و شاتيلا ؛ و أخيراً إسرائيل لأبي عمار و رجاله ؛ و تصفية قادة الفلسطينيين بعضهم بعضاً ..

حَزَني الأكبر هو توحش إسرائيل : سلاحاً و همجيةً و غروراً ؛ مقابل الضعف النسبي للفلسطينيين في مواجهاتهم و لوحدهم .. قارن هذا الانصراف العربي عن قضية فلسطين بالحماس و الثقة العربية حتى عام 67 ..

وفي خلال سنوات التفاوض بين إسرائيل و السلطة الفلسطينية تبرز حقيقة عجز التفاوض عن استرجاع ما التهمته إسرائيل .. .. .. من يدخل ذراعه في جوفها و أمريكا تضمن وجودها و أمنها ؛ و تعادي من يعاديها ؛ و لا تسالم من يسالمها ! ؟.. ..

الاستشهاد يعطي "للانتحار" قيمة بناءة و ليست تدميرية ؛ فأنت تصحح وضعاً و تقاوم ظلماً ؛ و تضمن الجنة بدلاً من أن تعيش جباناً تحت رحمة احتلال و قهر و تشريد و قتل ؛ الإرهاب حرب من لا يملك الجيش المنظم ؛ الإرهاب خير من القتل الجماعي و التدمير المنظم .. الإرهاب عملية مقصودة في كثير من أفعالنا نريد بها تغيير واقع ؛ أو فرض إرادة .. هي أرخص و أشد فعلاً ؛ و أرحم من القهر المنظم و الإفناء الكامل ..

مجرد إعداد الجيوش – لترهبون به – قد يحقق الغرض و يحقن الدماء و يخيف الأعداء و يمنع الحرب أصلاً ..

المقاومون الذين يخضعون للحصار و التفتيش و لا يملكون سلاحاً في مواجهة عدو يتحصن بالدبابات ؛ و يقصف البيوت بالطائرات ؛ و يسند ظهره إلى ترسانة نووية ؛ و دعم كامل من قطب القوة الوحيد في العالم ؛ ماذا لو لجأوا إلى الحجارة و العمليات الاستشهادية ليحدثوا أثراً في عدوهم الجبان المتكبر ؛ و قد أحدثوا أثراً فعلاً .. ..

لئن كانت قبضة اليهود على الفلسطينيين قبضة خانقة على رقبتهم ؛ فإن ضربات الفلسطينيين تحت الحزام أشد إيلاماً للإسرائيليين .. يراهن اليهود على نصرة الأمريكان لهم ؛ يراهن الفلسطينيون على نصرة الله لهم ؛ و شتان بين الرهانين .. ..

اليهود يحركون الأمريكان ؛ و الله يحرك الفلسطينيين .. ..

الأمريكان و قوتهم إلى زوال ؛ و الله يورث الأرض من يشاء .. حرب العراق مثل آخر على هوان العرب و المسلمين في هذا الزمان ؛ لئن كان الغرب يتهمهم بشن حرب إرهاب على مجتمعات ؛ فليت الأمريكيين كذلك .. نحن في حاجة إلى الرد على استفزازات الغرب و إهانته لعقائدنا ؛ و استباحته لحرماتنا ؛ و "شفطه" لخيراتنا .. العمليات الإرهابية قطعاً هي السلاح الوحيد المتاح للمسلمين و العرب

و لكني اعتقد أن "الإرهاب" هي تهمة ملفقة للعرب و المسلمين بهدف شن حرب الدمار الشامل علينا .. مازلت أعيش الحرب منذ الأربعينيات حتى الآن ؛ و لذلك اعتقد أنها جزء من الحياة الإنسانية .. ليست الحيوانات كذلك ؛ لم يفن حيوان حيواناً آخر من على ظهر البرية كما أفنى الإنسان عناصر و قبائل و أجناساً منه .. ..

يقاتل الإنسان للهيمنة – مجرد الهيمنة – ضماناً للموارد ؛ و الموارد محدودة ؛ و الأطماع عالية ؛ و روح العدالة غائبة ؛ و لذلك يستمر الصراع و يشتد على الموارد و المقدسات .. كتبت لصديق لي يهودي أمريكي : ليت الله يفجر في كل الأراضي بترولاً يكفي كل إنسان و كل كلب على هذه الأرض .. ليت الله يوسع الأماكن المقدسة لكي تسع جميع أبناء إبراهيم ؛ من اليهود و المسلمين و المسيحيين .

هل يسمع الله دعائي ؟ .. ..

الفصل الثاني

شهادتي على العصر

لست عاملاً بالسياحة و لا التاريخ ؛ و لن اسجل هنا لتاريخ مصر في العقود التي عشتها من ثلاثينيات القرن العشرين إلى العقد الثاني من القرن الواحد و العشرين ..

اسجل فقط و يهمني أن يعرف الناس انطباعاتي من مواقعي المختلفة خلال رحلتي مع هذه الأيام .. و سأنتقي كما طلب مني الناس أن اركز على الأحداث التي شملتني شخصياً .. لعل من الممكن و نحن نسجل التاريخ بأمانة أن نصنع من موزاييك ذكريات الناس لوحة صادقة .. و يحدد ما اذكر و ما احذف أخلاقيات المهن التي عملت بها و درستها و حميت حقوقها .. ..

و ينطبق هذا على أسرار الأشخاص و الأسرة ؛ و بقدر حماسي لأخرج إلى العلن أسراراً شخصية لي فإني كرهت بشدة هذا التعدي و جعلت له حدوداً ..

حالة الفوضى الخلاقة التي عمت البلاد أخيراً دفعتني أكثر لأن ادلي بدلوي في الحراك الدائر ؛ الذي يتطلب أن نخرج من السكوت "الآمن" الذي عشته ردحاً من الزمن في الأمور المسكوت عنها خوفاً و طمعاً ..

عصر الملك صاغ لي فيه طفولتي و شبابي : تعليم رائع ؛ و حياة "مستورة" ؛ و فرص صعود اجتماعي لا بأس بها .. تعامل مع دول الجوار : (فلسطين ؛ السودان ؛ و الجامعة العربية) و الأحداث العالمية الكبرى (الحرب العالمية الثانية) ؛ أرضي الأغلبية و أغضب أقلية (الضباط العائدون من فلسطين) ؛ ممارسة سياسية فيها من الديموقراطية ما يكفي لتغيير النظام بطرق سلمية كلما دعا الأمر ..

البرلمان و الأحزاب و الجمعيات السرية ..

مضى نفوذ النظام الملكي و أتى عصر الانقلابات و حكم العسكر .. ..

لأسباب داخلية معروفة و موجة عالمية أكثر وضوحاً سلمت الشرعية الملكية بلا مقاومة .. ..

حكم عبد الناصر و بعده السادات و مبارك تحت شرعية عسكرية بطريقة أتوقراطية ؛ و سلم كل منهم الكرسي إلى نائبه ..

إذا أسميناها جدلاً "الجمهورية العسكرية" فإنها ظلت تحكم حتى انهارت "لوحدها" لما فسدت و فشلت ؛ و لم تجد من دون الله و دون الشعب ولياً و لا ناصراً .. تلقفها الناس و احتاروا ماذا يفعلون .. ..

طوال هذه السنين أنا ممنوع من العمل بالسياسة ؛ أبي نصحني مراراً أن ابتعد عن السياسة حرصاً على مستقبلي ؛ و هو يعتمد على "ولي العهد" .. ..

قال لي الجيش : لا سياسة في العسكرية ؛ و استمر ذلك بالنسبة لي ثمانية عشر عاماً حتى صرت كهلاً مشغولاً بالحياة ..

عندما عدت إلى الحياة المدنية في الثمانينات شهدت كيف ينخرط زملائي من أساتذة الجامعة في عضوية "الحزب الوطني الحاكم" لأسباب تهمهم و تهم نظام الحكم ؛ و تقززت ؛ و ابتعدت .. ..

عشت السنوات كلها مراقباً لما يدور ..

عندما بدأت خدمتي العسكرية متطوعاً متخرجاً في الكلية الحربية عام 1958 قيل لي ابتعد عن "الكرسي" و "السلاح" ثم افعل بسلوكك ما تشاء .. ..

وضعت عيني على مستقبلي الفني الطبي ؛ و بالذات في عيادتي رمز المهنة .. و كان سقف التخصص قد ارتفع ؛ ولابد من الدكتوراه و المؤهلات الأجنبية .. ..

كان واضحاً أن عبد الناصر يعد لجولة أخرى مع إسرائيل بعد 1956 ؛ و تغيرت العقيدة الحربية من الألمانية إلى السوفيتية ؛ ووجدت نفسي تتلقفني مؤسسات الجيش المختلفة .. و إذا كانت الواسطة هي نوع من الفساد ؛ فإنني رأيت أصحاب المحاسيب يتقافزون من حولي و فوق أكتافي يلتقطون الثمار و الحوافز و المميزات .. ..

و كان هناك بهذا ممارسة للسياسة خصوصاً الداخلية بين الرئيس و المشير و هكذا .. ..

استعنت بالله و توكلت على الله و حصلت على الدبلومات و الدكتوراه التي اطمع إليها "من منازلهم" .. ..

و في نفس الوقت كان سلوكي في العمل العسكري منضبطاً لوجه الله .. و لم يكن هذا الانضباط العالي يرضي البعض و يقولون "عسكريتي حراقة" ..

خدمت في الفرقة الرابعة المدرعة (فخر القوات) ؛ و ألوية مشاة ؛ و فرقة في الجيش الثاني ؛ و مدرسة للدفاع الجوي ؛ و مستشفيات كوبري القبة و المعادي .. ..

كنت فخوراً (و لا أزال) برتبتي العسكرية و خبرتي مع القوات المسلحة المصرية ..

أنا هنا شاهد من داخلها ؛ عاش بها 18 عاماً ؛ اشتركت مع القوات و هي تتشكل ؛ و هي تتدرب ؛ و هي تحارب .. كنت الحظ من حين لآخر ضابطاً أو مجموعة ضباط يخضعون "للغسيل" ؛ أي الإبعاد عن القوات المسلحة ؛ و لم نكن نعرف لماذا ؛ هذا نظام الأمن في القوات المسلحة ؛ و يزداد الموجودون حذراً ؛ فمَنْ علَّمنا الحكمةَ غيرُ رأسِ الذئبِ الطائرةِ ؟! ..

شهادتي على الجندية المصرية هي : استراتيجية الاعتماد على آلاف "المجندين" لمدد طويلة ؛ و الاحتفاظ بحالة الاستعداد الدائم مدداً طويلة .. .. كم تعذب المجندون من ذلك و عانت أسرهم ؟

علاقة ذلك بالسياسة العامة للدولة ليس شأني ؛ و لم يكن لأحد سلطان كبير عليه ..

و لم يكن أمام البعض غير الفرار ..

كانت "مهمة" القوات المسلحة المصرية طوال السنوات الطويلة هي متابعة عبد الناصر ؛ و من بعده السادات و مبارك ؛ في "حرب شخصية" بينهم و بين جنرالات إسرائيل .. و كان واضحاً من الوهلة الأولى "و حتى الآن" تفوق الجنرالات الإسرائيليين في إدارة هذا "الماتش" الجبار الذي استمر من 1948 إلى الآن .. ليس لي الحق في الحكم الكامل على من كسب و من خسر .. و لأن ما اشتركت فيه من عام 1958 حتى 1978 دعا أن ابلور نظرية تضم هذه الأحداث ..

** ** **

يا عبد الناصر (في مرقده) :-

شرفتُ بالعمل تحت لوائك ؛ واخترته في أول حياتي العملية ؛ و حصلتُ معك على "نوط الواجب" عام 1958 ..

خارجياً : عاديت بسرعةٍ و إصرارٍ التحالفَ مع الغرب (أمريكا بالذات)

و تلقفك العدو .. .. ..

و تلقفك السوفيت ..

فأصبحت مثل صبي في الحارة تتشبث بذيل ؛ بينما يتعلق عدوك بذيل الفتوة "الأمريكاني" "الأقوى" ؛ و كان الفتوان يتعاركان و يتضاربان بالأرجل (الحرب الباردة) فيصيبك من لطمات الفتوة الأمريكاني و استفزاز الإسرائيلي بينما حليفك الفتوة السوفيتي يلعب بك لعبته هو السياسية (الكونغو ؛ اليمن !) و لم يكن يسمح لك بمواجهة "بسلاحه" مع من يحارب بسلاح أمريكي و دعم أمريكي

داخلياً : كنت تحارب "لوحدك" ؛ و لم تشرك الشعب المصري معك من الأول و طول الوقت (و لعل هذا لخوفك من الديموقراطية)

و كنت تطمئن الناس **(كذباً)** بتفوقنا "الاستراتيجي" .. ..

و تطلب من الناس أن يتركوا لك الزمام .. ..

(لاشئ يعلو على صوت المعركة / عبد الناصر) ؛ و لم يكن أمام الناس خيار ؛ و ابتلعوا الغصة "النكسة" .. ..

و نسيت و نسي الناس معك معركة "التنمية" ؛ و كثر نزف مصر ؛ ووهنت قوتها .. ..

و لم يتأكد المصريون أن من مات بسيناء هم "شهداء ؛ لأنهم لم ينووا الجهاد" .. ..

هذا الدرس تَعلَمَّ (جزءاً منه فقط) الساداتُ .. ..

اذكرك ببعض خبراتي في العسكرية المصرية في عصرك ؛ و قد كان لتخصصي في الطب النفسي و الأعصاب فائدة استفاد بها البعض ؛ و أنكرها الكثيرون .. ..

كتبت لك عام 1964 تقريراً يلخص رسالة دكتوراه عن المخ و أثر إصابته على السلوك ؛ و أوصيت ببساطة أن يراعى في لباس الجنود ما يحمي الرأس من الإصابة .. لم أر أثراً لهذه التوصية ؛ و قلت : اللهم فاشهد .. كتبت تقريراً على أن إزالة أمية المجند تضاعف عمله "الجسدي" مثل حفر الخنادق .. .. ..

لم يأخذ بها الجيش إلا بعد النكسة ؟!

أنا دخلت الجيش 1958 أي بعد 1956 التي أعلن أنها انتصار ساحق لنا ضد الثلاثية الغازية .. ..

و في رأيي الشخصي من داخل خبرتي في الجيش المصري فإن جرحاً غائراً كان قد حدث في جنب الأمن المصري بفتح البحر الأحمر للملاحة الدولية .. ..

و ظل هذا يؤرقك و تحاول استعادة سيطرتنا على ممر شرم الشيخ ؛ و حاولت و ترددت ؛ و كنت أنا عضواً في إحدى هذه "التفريدات" لفتح ممر تيران لنا فقط ؛ و أجلت هذا الحديث ليكون غنيمة حرب 1967 الوحيدة .. ..

و كنت جزءاً من حرب 67 ؛ و قبلها اليمن 1965.. ..

** ** **

من أنا ؟

أولاً : أنا بالطول :– (الديناصور) ؛ منعم ؛ الولد البكري لفتحية و محفوظ ؛ ولد 11 أكتوبر 1934 (برج الميزان) في شارع النزهة ؛ قسم الوايلي ؛ القاهرة ؛ و انتقلت الأسرة سريعاً إلى بني سويف .. الأب : مهندساً بالسكة الحديد بمؤهل شبه عالٍ ؛ و الأم : خروجاً من سنة أولى ثانوي .. و التحق الولد بمدرسة ملحقة المعلمات من سن الرابعة حتى السادسة مؤهلاً للتعليم الابتدائي . ..

و انتقلت الأسرة إلى المنصورة عبر شهور قليلة في سوهاج ؛ و التحق التلميذ عبد المنعم محمود عاشور بمدرسة المنصورة الابتدائية ؛ رأى الناظر أن يعفيه من سنة أولى ؛ و يلتحق بالسنة الثانية ؛ و الفضل للمدرسة قبل الابتدائية .. ..

و ثبتت نظرية ناظر المدرسة حين حصل عبد المنعم على شهادة الابتدائية بترتيب "الأول" على المدرسة و المنطقة عام 1945 ..

و تنتقل الأسرة مرة أخرى إلى أسيوط ليكتسح عبد المنعم عاشور المرحلة الثانوية بترتيب "الأول" على كل الصعيد ؛ و ضمن الرتب العليا على مستوى مصر 1950 ؛ و المسابقة التي تؤهل للجامعة "بدون مصاريف" ؛ و كان الثاني من عشرين ..

و انتقلت الأسرة إلى القاهرة بطلب من الوالد لهيئة السكة الحديد ؛ فقد جاء وقت دخول "البكري" الجامعة في القاهرة ؛ و بالذات كلية طب قصر العيني فخر الكليات .. ..

استمر الدكتور عبد المنعم عاشور ضمن أسرته الكبيرة منذ تخرجه يناير 1957 إلى 1963/7/25 منتقلاً إلى بيت زوجته .. ..

و لم ينقطع صعوده في عالم الدراسات العليا حتى عام 1971 بحصوله على درجة الدكتوراه في الطب تخصص طب نفسي و عقلي ..

بإنهاء سنة الامتياز بقصر العيني التحق الدكتور عبد المنعم عاشور بالخدمات الطبية للقوات المسلحة 1958متطوعاً ؛ و لبث في الخدمة العسكرية حتى منتصف 1976 مستقيلاً ليلتحق بجامعة عين شمس مدرساً للطب النفسي بكلية الطب من خلال مسابقة .. ..

فترة الخدمة العسكرية شهدت استمرار الدراسة العليا و الحصول على دبلومات عليا في الأمراض الباطنة ؛ ثم العصبية و النفسية ؛ ثم دكتوراه الأمراض النفسية ؛ ثم عضوية كلية الأطباء النفسيين الملكية .. ..

و كان الإعلان عن وظيفة مدرس و نجاحي في الحصول على الوظيفة بدءاً لمرحلة جديدة في الدراسة و التخصص ؛ و كذلك البناء و التطوير ؛ و اصطدمت مشروعاتي بالأوامر العليا **"الغبية"** ؛ و لكنها كانت قد استقرت إلى حد كبير ؛ و استمرت في النمو "بقوة الدفع الذاتي" حتى الآن .. مازلت اعمل أستاذاً غير متفرغ ؛ و احمل رتبة عقيد طبيب متقاعد ..

ديناصور

كنت دائماً واقف "أوف سايد" ؛ أي متسللاً سابقاً لزماني ..

لكني كنت رومانسياً بعد الزمان بكثير ..

ثانياً : أنا بالعرض :-

كما نويت ووعدت في "الرؤية" فأنا اظل على حياتي عبر 77 عاماً في ضوء ما تبقى من ذكريات ؛ استعيدها ؛ و قد تقفز أمامي "بمزاجها" ؛ انتقي ؛ و اربط ؛ "واتفلسف" .. .. ..

أنا ابن جلا و طلاع الثنايا ؛ متى أضع العمامة تعرفوني ..

ليس لهذا البيت علاقة بحياتي و لا أنوي أن اتمثله .. .. ..

و هناك من يلخصون حياتهم في مثل هذا التقرير المركز القصير البسيط ..

أنا "ولي العهد" في مملكة أبي و أمي كما أرادا و كما أملتْ الظروفُ ..

ولي عهد أقرب إلى نائب المملكة بسلطات كبيرة و مسؤليات واسعة ..

ولذلك يجب التوقف لحظة عند طبيعة هذه الملكية التي أسسها و حكمها "فتحية و محفوظ" ؛ الجدات و بنات عم لوراثةٍ فيها الزهوُ بالماضي و التطلعُ للمستقبل .. بها عناصر السمات الشخصية لأولاد البلد و أحفاد المماليك .. و بها الجينات الكامنة لأمراض خطيرة تدفعهم للتزواج خارج الأسرة صدقاً أو وهماً ..

هذه الخلفية "الحضرية" تعتمد الأسرة فيه للصعود الاجتماعي على العمل و العمل فقط .. و كان العمل الحكومي خصوصاً المتميزُ مثل "هضبة السكة الحديد" هو الخيار الأفضل هرباً من الصنعة أو التجارة ؛ و كان بالإمكان أن ترعى وظيفة أبي أسرة من طفلين أو ثلاثة بدون إجهاد ..

و لكن كان لأمي مشروع آخر : "أحد عشر كوكباً" كما اسميه ؛ و هو لا يتوقف عن الإنجاب مادام الله يريد ذلك ؛ و مازال ذلك يفيد الزوج "بالعيال" ؛ و مادام ذلك يرد على "العزال" الذين يقولون إنها "لا يعيش لها ذكور" ..

كانت عبر ثلاثين سنة في سباق هي و أختها الشقيقة ؛ أخت زوجها (أمي و خالتي و عمتي) .. ..

و كان التقويم يدور حول عدد الأبناء الذكور في مقابل الإناث .. ..

و لكي تحصل أمي على الكأس في نهاية السباق لم تتوقف عن الإنجاب ؛ حتى كان لديها أحياء أربعة ذكور و أحياء 4 إناث .. .. و أنا ولي العهد اعيش هذا السباق معهن .. ..

و يجري وراءنا في هذا السباق اللامعقول أبي ؛ و كانت عناصر مشروع "أحد كوكباً" بالأسقف في الرعاية و التنمية و التعليم و توفير المسكن لتزويج البنات .. ..

لم يكن أحد يجرؤ على انتقادها أو إفشال مشروعها ؛ كانت تتفانى في تنفيذ حياتها و لا تطلب العون من أحد .. ..

و كان من المستحيل على أبي و أنا أن نقف متفرجين ؛ فكان على أبي أن يعمل "أوفرتايم" نصف الشهر في صورة "مرور" في مقابل

و كان على "ولي العهد" و هو أنا أن يستجيب لما يعيشه من حياة وسط هذا الزحام ..

تفاصيل كثيرة لأعباء واقعة يضطر ولي العهد أن يتقنها و يمارسها .. ..

و قيل إن هذا جعل لشخصيتي نضجاً مبكراً ؛ و إمكانية أن يستعين بك الغير ؛ و لربما كان ذلك تحضيراً لامتهان الطب و الطريقة الإنسانية ..

و في مقابل هذا اعتقد و أحس أن "ولي العهد" فقد طفولته و شبابه ؛ و قبل العقم في حياته الزوجية كمخرج لكل هذا الانشغال بالأطفال و التربية .. ..

** الحرب :

المشهد يونيو 67 ؛ و جيوشنا المنكسة و لا اقول المنسحبة و لا للمتحفزة لقتال ..

ولينا جرنا للعدو فجأة بعد أيام من تحركات ضبابية على الحدود استفزته ؛ و لعله رحب بها و اعتبرها الضربة الأولى ؛ و هي كذلك ..

نزع عنا العدو ملاءة الغطاء الجوي ؛ فظهرت مواقف انتهت "بالفلسفة الكبرى" من الحدود إلى القناة تاركين سيناء للكلاب و النابالم

في ممر متلا توقفت حركة آلياتنا المتجهة غرباً لازدحام الممر بالفوضى ..

احتميت بتلة على الجانب الجنوبي للممر تجاه عربة الإسعاف التي كنت انقل فيها جرحى ..

هالني هذا الضياع الكبير للبشر و السلاح و المؤن بفعل التزاحم كما الخارجون من متسع إلى عنق زجاجة .. يا لفرحة طياري العدو و هم يوفرون طلقات الذخيرة و يكتفون برش النابالم (أبو ثلاث تعريفة) تشتعل كل الآليات ؛ و يختنق الممر بالنار و الدخان و الدم ..

مرت طائرة للعدو فوق رأسي ؛ و انتشرت حولي سوائل حسبتها وقوداً ؛ فإذا هي تشعل الرمال حولي ؛ و لكن الله سلم .. ..

كانت هناك وقفة للتأمل لساعة أو أقل ؛ لمعت فيها في ذهني وقفة مع عبد الناصر الذي اعتبرته في ورطة مثلي ؛ و كان قائدي المباشر قد علق على ما حدث بقوله : "الراجل الكبير تكون غلطته كبيرة" .. ..

هناك حاجة ماسة إلى تغيير الاتجاه في الحياة إذا كتبت لنا هذه الولادة الجديدة ..

لن أعود اعتبرك إلهاً نشرك بالله بك ..

لن نسكت على ما كان أياً ما هو ..

سأكون المعتمد الأول على نفسي من اتباع ما احتاج إليه ؛ و ما يحتاج إليه الوطن .. ..

لن استجدي بعثة خارجية من الجيش ..

سأعود إلى الجامعة بتضحيات كبيرة لمجرد أن اعمل في أرض خصبة .. ..

لقد قبلت بإيمان عميق محنة العقم في زواجي ؛ و لم انظر إلى من أعطيناه مالاً وولداً ..

أليس هذا سخفاً في سخف ؟

لن تعرف مصر النمو لسنوات طويلة بعد الذي حدث و الذراع التي قطعت .. و سنعود إلى الحرب بيد واحدة و فقر دم .. **و هل سيتركنا الله إلى هذا الضلال و الضعف ؛ ألسنا على حق ؟**

لن تعرف إسرائيل السلام و الأمن لسنوات طويلة ؛ فأجيال شتى من الشهداء ستتابع لحنقها و تأديبها ؛ **هل الله معهم هم ؟**

هم يسألون : لم لا تحبوننا ؟ في كتاب ؛ و أفعالهم سيوف تقطع الحب فيما حولها ..

** شوكة في زوري :-

شوكة سمك تقف في "زوري" و تهدد حياتي ؛ يسرع أبي بي إلى القاهرة لاستخراجها في شارع فؤاد ؛ كذلك تتضخم لوزتي و تهدد تنفسي ؛ و يسرع أبي بي إلى القاهرة لاستئصالها (جيلوتين) في شارع فؤاد ؛ أليس طبيعياً أن احلم بأن أكون أستاذ أنف و أذن و حنجرة ؟

تهز المدينة موجات من أوبئة عفنة (تيفوس و طاعون إلخ) منقولة بالقمل و البراغيث و الفئران ؛ و اهتز لمنظر حملات التطهير بالقار الأسود ؛ فلم يكن هناك د.د.ت بعد .. ..

يسقط طفل من بلكون جيراننا ؛ و يموت لي أخ رضيع بالالتهاب الرئوي ؛ و اواجه موت الأطفال في هذا العمر المبكر ؛ و اقسم أن أكون طبيباً ووزير صحة "كمان" ..

انعم بأعظم تعليم في مصر في مدرسة المنصورة الابتدائية .. شكراً لطموح أبي و أمي ؛ و شكراً للحكومة .. كنت بطل المدرسة بلا منازع حتى كنت أول شهادة الابتدائية **1945** .. مازلت احن إلى كل شئ في المنصورة الابتدائية و أتمنى أن أرى في مصر الآن مثلها

كان على أهلي دفع رسوم قدرها 8 جنيهات على أقساط أربعة ؛ و كانت الحكومة تنفق على التعليم طبق سياسة التركيز على أعداد محدودة من المدارس "النموذجية" "المتميزة" لضمان الكيف و تخريج صفوة تقود المجتمع .. ..

سأذكر عناوين عناصر فاعلة في اليوم الدراسي في المنصورة الابتدائية في أوائل الأربعينيات :– كوب اللبن الدافئ المحلى ؛ و أصبع الموز ؛ يقدم في الحصة الثانية ؛ و غذاء كامل ساخن بين الفترتين ؛ ظهراً الألعاب و القسم الخصوصي ؛ الفلاحة و الاقتصاد المنزلي و صناعة الجبن و الشيكولاتة .. زكي : تلميذ يهودي يشاركني "التختة" و يهدينا "كعكة اليهود بلا سمنة في عيد الخروج" ؛ الرسم و الأشغال ..

السوق على جانب البحر الصغير ووابور الطحين في حديقة المنزل الخلفية انكمشت أسرة صاحب البيت ؛ و فرن و دجاج و كرمة

عنب ؛ خير "البط" ؛ و فطائر و طواجن كلها ذات نكهة محلية لاتزال تدور في فمي و أنفي .. ..

نلعب "الحجلة" ؛ أولاد و بنات في الشارع أمام بيتنا .. اللحم الأحمر اختفى ؛ و تحايل الجزارون على التسعيرة الجبرية "بورق اللف" السميك جداً ؛ و يسأل الجزار عند الشراء : أتريد أن تزن اللحم بالورق أو بدونه ! .. ..

الكيروسين و الشاي مدعوم بالكوبون ؛ و نشأت الحركة التعاونية في تجارة القطاعي ؛ و اشتركنا في أول جمعية نشتري بالتسعيرة و التخفيض و نجني أرباحاً آخر العام .. ..

سنوات الحرب امتدت إلى الهدنة ربيع 1950 .. ..

و انطبع في كياني العقلي و العاطفي أن الحرب هي جزء من الحياة و ليست خروجاً عليها .. ..

بدأت الحياة تكون أكثر صعوبة ؛ و عدد أفراد الأسرة يزيد ؛ و مرتب الوالد الحكومي لا يتحرك كثيراً ؛ **و تعلمت كيف بالموارد المتاحة تستطيع أن تعوم ؛ بل و ترقى : بالجد و الاجتهاد و الإخلاص .. ..**

نصاب بالحصبة و نلبس الأحمر ؛ و نأكل التفاح الأحمر الأمريكاني ؛ و تحدث المناعة في باقي الأطفال بتعريضهم للإصابة معي .. لم يكن للحصبة تطعيم بعد ؛ و إن كنا قد أتممنا التطعيم "التشريط" على الجدري خارج المدرسة .. كانت مظاهر الحياة في المنصورة ملونة

بالحرب الدائرة ؛ دفاع مدني و اقتصاد حرب و أغنياء حرب .. ..

بدأ دور "ولي العهد" في التبلور في صورة وعي حياتي بالأسرة و المجتمع و الدولة ؛ بل و العالم .. ..

نمت "صداقتي" بأبي و هو يصحبني معه في جولات التفتيش على أملاك السكة الحديد في شمال الدلتا و "البراري" .. كنا نصيف في رأس البر أو في القاهرة ضيوف على جدي أو خالتي .. ..

المنصورة بلد جميل نشيط علمتني و أمتعتني ؛ و ساعدتني على النمو و النضج و تحمل المسؤلية و ابتكار حلول جديدة للحياة .. مرتع شبابي شاطئ "البحر الصغير" و الهويس و حديقة النهر ؛ و فريد الأطرش يشدو كل عصر : "عشك يا بلبل ده جنة" ؛ في الواجهة مرة أخرى دور "ولي العهد" موزعاً بين أبي و أمي .. أبي يترك لي ملكه و حكمه نصف الشهر ؛ و هو يجوب الصعيد تفتيشاً و تحصيلاً "لبدل السفر" .. السحب من البقال على النوتة ممارسة شائعة تسهل التعامل و الشراء بالجملة ؛ و سياسة التدوير و تقليل الفاقد هما أسلحة لإحداث التوازن ..

أمي تتخذني ولي عهد لها في تنفيذ مشروعها الجبار .. طفل كل سنتين .. تسابق به إحساساً دافقاً بعدم الأمان "اربطيه بالعيال" ؛ و المنافسة مع الأخت و الحماة في عزوة "الصبيان" ؛ تغلبنا جميعاً بأن تستشهد في رعايتنا و خدمتنا و تجيد تجييشنا لأدوار في مشروعها .. لابد لأن يكون في أعماقها خيالات من الماضي ؛ و أنوار على المستقبل .. تعتقد أنها حرمت من استمرار تعليمها بخروجها من مدرسة "الأميرة فوزية الثانوية" ؛ و حلفت أن تعوض هذا في نسل مثقف ناجح ؛ بناتاً و صبياناً .. و لكنها أسرفت في تحميل نفسها ؛ مارست معها و مع أبي "دور" و عبء ولي العهد في حياتهما .. تركا لي ميراثاً من المسؤلية الأدبية .. ضاعفت الجهد و ساعدني الله أن اخدم مشروعي في الحياة الشخصي .. ..

تعلمت أن هذه هي الحياة المثلى الواقعية .. تكافل الأجيال و تساند الأهل ؛ و نشأ عنها حب جارف للعمل الاجتماعي العام طال و شمل حياتي كلها .. علمت من دراساتي أن وراء هذا "جينات" وراثية : "الغيرية" في مقابل ☚ "الأنانية" و ☚ "التركيز على الذات" شكل هذا بوصلة لي في "مساراتي" .. ..

في المدرسة الثانوية بأسيوط عشت سنوات تكوينية عميقة .. كانت إحدى مدارسي متميزة تعد على أصابع اليدين .. كنت الأول دائماً بلا منازع ؛ و كنت اعاقب .. نعم ؛ اعاقب كثيراً إذا اهتز مستواي عن الأول ! للقمة ثمن .. تجهيزات كاملة للعملية التعليمية و يبقى منها في ذاكرتي مستوى المعلمين فناً و إنسانيةً .. كانت معاشرة "النصارى" سلسة و طبيعية و متبادلة .. مدرس الرياضيات زارني بعد سنوات في القاهرة طالباً في الطب .. مدرس اللغة الإنجليزية ارتفع بمستواي فيها إلى قمة .. و كان هو قمة .. ناظر المدرسة ترقي إلى وكيل وزراة المعارف و هلم جراً .. تعلمت عزف الكمان و الخطابة و الكتابة ..

عشقت على البعد طالبة قبطية كانت تسير دوماً على الرصيف الآخر في مشوار الصباح و بس .. اختلط دور "ولي العهد" بدور "الأخ الأكبر" .. كنت بالنسبة لأبي و أمي الاستثمار الأوحد و الأولى بالرعاية .. كان من همومهما "أمن" المراهق طالب الطب .. سيناريوهات "البوظان" متعددة ؛ حضرت من الصعيد بشهادة توجيهية فائقة و نجاح في مسابقة تضمن الإعفاء من رسوم الجامعة و هي 26 جنيهاً سنوياً ؛ و التصاقاً بالكتب و المكاتب و المعرفة و التدين البسيط ..

تركت "الأخ الأكبر" يقتحم كل أسراري و أوراقي و مراسلاتي و صداقاتي .. وبقي هذا الاستسلام لسيطرة "الأخ الأكبر" ؛ طول حياتي اتوقع أن شخصاً ما يراقب تليفوناتي خصوصاً لأني عسكري .. و لم أبالي ؛ و عشت بإحساس غامر أنني كتاب مفتوح ؛ و لم يكن لدي الكثير مما يستحق الإخفاء ..

و من منن الله الكبرى عليَّ في هذه المرحلة أن أبحرت رغم عواصف البيولوجي و المجتمع ؛ و لم اغرق و لم يستولي علي قرصان ..

عشقت زميلة سمراء في الترام و شارع الجامعة و معمل الكيمياء و مدرج المحاضرات .. لم أصرح لها و لم أسألها عن شعورها نحوي ؛ و حمل كل منا للآخر صداقة دامت طول العمر .. ..

سكنا في حي الفجالة قبالة كنيسة الروم الكاثوليك في شقة تركها اليهود و باقي العمارة يونان و شوام ..

عناوين أحداث هذه الفترة :-

حريق القاهرة .. ثورة 52 .. جوالة كلية الطب .. المكتبة الأمريكية بجاردن سيتي .. و التدخين .. و جماعة الرواد ..

أوصاني والدي في هذه المرحلة ألا انخرط في الحياة السياسية ؛ فالأحزاب كلها شخصية لزعمائها .. كانت هذه خبرته و قد تقبلتها منه و بقيت في كل الأحوال على هامش الدائرة سواء الإسلامية – قد صنفوني منافقاً – و الليبرالية و الشيوعية و الاشتراكية .. و لم أندم يوماً .. شجع هذا رجال الثورة على محاولة تجنيدي في منظماتهم ؛ و لكنني قاومت العصا و الجزرة ؛ و لم أندم أيضاً ..

أخذت لنفسي خطاً سياسياً شخصياً استعرته من كتابين ؛ أحدهما يقول : "علم نفسك بأن تبحث عن المعلم الجيد و تجلس له" ..

و الكتاب الثاني : عن أخصب و أولى مجال لدراسة الإنسان هو الإنسان نفسه ؛ و قد عملت بهما .. ..
لم أكن مطلوباً للتجنيد و لم يكن هناك دافع ملح لأن التحق بالسلك العسكري ..

لكنها الرومانسية التي أصابتني بها رومانسية عبد الناصر .. تخرجت يناير 57 بعد الفراغ من أزمة 56 ؛ هاجرت نصف الدفعة إلى العالم الغربي هروباً من مستقبل يسوده الصراع المصري الإسرائيلي .. قاومت فكرة الهجرة لسبب دوري "ولي العهد" ؛ و لم أندم على ذلك

ساعدتنا إجراءات الثورة الأولى على القفز درجات في الصعود الاجتماعي .. مجانية التعليم مكنت الطبقة الوسطى من الحصول على تعليم مازال يحتفظ بجودته .. حصلنا على مسكن أفضل .. أمكننا أن نطمئن على البنات تعليماً و تشغيلاً و تزويجاً .. ..

أول ما أوصاني به قادتي في الجيش و زملائي في الوحدة العسكرية ألا انظر إلى كرسي الحكم و ألا افرط في سلاحي .. و بعد ذلك افعل ما شئت ..

ارتبطت بالفرقة الرابعة المدرعة و جمعت إلى رعايتي لها و استكمال دراستي العليا ؛ و حصلت على نوط الواجب عن دوري في مشروعها الكبير .. كان ضباطها مثالاً للعسكرية المصرية ؛ و كذلك صف ضباطها .. ..
تعلمت أن عدوك هو شريك مهنتك ؛ فقد وجدت حباً و دعماً في خدمة التشكيلات ؛ حسداً و حقدا في الخدمات الطبية ..

و شققت طريقي في الطب بمجهودي رغم الظروف الصعبة ..

رشحني تقدمي العلمي و الفني أن اخدم في فريق "أوليف كرونا" لجراحة المخ و الأعصاب ..

عام 1963 أمكنني أن اسجل لدرجة الدكتوراه بجامعة عين شمس ؛ و أن استوعب صدمة سرقة دوري في بعثة .. تعودت على ذلك ؛ و لا أزال أثق في حكمة الله الذي يتولى المؤمنين .. ..

عام 63 أمكنني أن أتزوج و أنا نقيب مرتبي 36 جنيهاً ؛ و لهذا قصة سأحكيها في موقع آخر .. ..

فوق جبل "بوعان" بطريق "صنعاء – الحديدة" حيث أخذتني الخدمة العملية 9000 .. ..

قائدي الفريق سعد الشاذلي (لواء آنذاك) .. ..

و المكان : صحراء الجوف ؛ و خبرة نادرة في القتال .. أم كلثوم تغني لأول مرة "الأطلال" .. امرأتي تكتب لي : "بعيد عنك حياتي عذاب" .. و طلقات "الهاون" حولنا ؛ و مطر الصيف يغسل مواقعنا .. لن أنسى الانسحاب الكبير لوحدتنا من الجوف مروراً بصعدة و الجنود يدفعون العربات صعوداً فوق الجبال .. ..

عدنا نهتف من اليمن إلى سيناء .. ..

ستة أشهر في اليمن حصادها : سجادة ؛ و غسالة نصف أتوماتيك ؛ و علبة بودرة جونسون للأطفال طلبها صديق عزيز ؛ و كان كل شئ ناقصاً في مصر !!

حصاد الفكر من رحلة اليمن هو التركيز على استكمال كتابة تقرير رسالة الدكتوراه و تنحية فكرة "لندن" حالياً .. ..

عناوين أخرى :

الوحدة مع سوريا و سقوطها .. الميثاق .. اغتيال كيندي ..

الاستنزاف في دهشور :

العقم كان شعار المرحلة في البلد ؛ و في زواجي كانت مأساة مستمرة و لم يكن هناك أمل ..

قبلت عقم زواجي بكونه إرادة الله ؛ يهب لمن يشاء و يجعل من يشاء ..

و لكن عقم البلاد و الاستنزاف يصيبا أكثر مما يصيب العدو ..

و غيم على وجداني ذكريات 67 .. ..

سنوات حبيب الله (موقع عسكري على شاطئ القناة الغربي أقرب إلى السويس ؛ص21) في أول تصد لتقدم العدو غرب قناة السويس .. ..

لم "افلسع" و لم اخضع للأوهام و أنا اقدر الموقف و اعالج صدمتي النفسية و انظر إلى المستقبل ..

ناقشت رسالة الدكتوراه في نوفمبر 67 و تقرر يومها أن المستقبل مفتوح لي في الجامعة بعد انتهاء المعارك و لو بعد حين .. ..

يوم استلمت شهادة الدكتوراه حملتها إلى أبي و كان يصارع السرطان في المستشفى ؛ فرح و قال : "الحمد لله عشت لأرى ذلك اليوم"

منشية البكري :

قال السادات إنها آخر الحروب .. بدأت طلب الانتقال إلى الجامعة .. كنت أصبحت مؤهلاً بدكتوراه من عين شمس و عضوية كلية الأطباء النفسيين .. ..

خبرتي مع الطب العسكري تضاعفت و تبلورت ؛ و دعوت إلى إنشاء الأكاديمية الطبية العسكرية .. استجمعت حصيلة 18 سنة بالقوات المسلحة ؛ و ما كنت لألقي سلاحي إلا إلى ميدان كفاح جديد .. الجامعة .. و إن كنت سأخسر مادياً .. ..

في حفل تسليم الشهادات قال لي رئيس جامعة عين شمس : " ما كنا نعطيك هذه الشهادة ما لم نكن متأكدين أنك ستأتي إلينا "

أخيراً وجدت من يدعوني للجامعة و من يتمسك بي في الجيش .. حمداً لله على هذا الموقف ؛ و لأنني أخذت بالأسباب ..

الفصل الثاني

جولات في بلاد الله

بعد عام واحد من التحاقي بالجامعة (ولها حكاية طويلة) كنت في لندن احقق خطوة على طريق تنمية ذاتي و قدراتي .. اخترت اقتحام طب المسنين و عيني على مصر .. وقاومت البقاء بإنجلترا .. ساعدني تراكم الخبرة في مصر و ساعدني أساتذة إنجليز أفاضل ..

كان تخصص طب نفس المسنين جديداً على الساحة العالمية و تقوده إنجلترا و كنت من الرواد .. ..

بمنحة من جماعة "هوب" الخيرية الأمريكية و جامعة عين شمس قضيت شهوراً في مركز التعليم الطبي في شيكاجو .. ..

إني أعطي كل شئ حقه ؛ فالتدريس علم و مهارة و ليس مجرد خفة دم و هالة ..

فصل شيق و فاصل في علاقتنا الزوجية :-

في مكتب مستر إدواردز (سير و حائز نوبل فيما بعد) أبو طب أطفال الأنابيب بعد الفحص يضع زوجتي أمام حقيقة حاجتها لمعجزة لتلد ؛ و براءتي مما اعتقد أنها تتعلق بأوهام و أكاذيب .. ..

قالت : لم تحتفظ بي ؛ و أي أمل تتشبث به ؛ قلت : لقد قبلت قدري معك من أول وهلة ؛ و عاهدت الله أن أرعاك و أتحمل ضعفك ؛ قالت : لن تطلقني و لن تتزوج عليَّ .. قلت : حق الزواج ثانية احتفظ به بلا تفريط بك ؛ و عدنا و قد اشتعل شعورها بعدم الأمان

نعود إلى جامعة عين شمس و قد قبلت أن اقبل وظيفة مدرس حماية لمشاعر آخرين .. لكي ازرع طب المسنين في مصر كان علي أن أهيئ له تربة ثم منزلاً ثم سكاناً .. ..

قصة طويلة قد اكتبها في مكان آخر ؛ اكتفي هنا بأنني بدأت و كان الله معي و حفنة من الزملاء و المسؤلين في الجامعة ووزارة التخطيط و أخبار اليوم (بعد سنوات أينع الحصاد) غرقت في نشاط تنمية طب المسنين على كل المستويات .. تحملت مسؤلية المؤتمر الدولي للصحة النفسية للمسنين 1982 (وله قصة طويلة) و استغرقني العمل عليه شهوراً طويلة و اقتحام لمجالات شتى في الإدارة و التمويل و العلاقات العامة ..

لا أنسى أنه كان مقرراً له نوفمبر 82 ؛ و اجتاح شارون لبنان في الصيف نفسه ؛ و انسحب عدد من اليهود الأمريكان ؛ و أصر أستاذ إسرائيلي أن يحضر .. و لم يفشل المؤتمر .. و كان العداء الأكبر الذي واجهه من كلية الأطباء النفسيين الملكية ؛ فقد تعودوا أن يسودوا ؛ تمنوا لنا الفشل .. ..

(بعد سنوات من نجاحنا تسلل إلينا الإنجليز سعياً وراء الرياسة ؛ ياه)

أعلن عن إنشاء الجمعية العالمية للسيكوجرياتريك بالقاهرة 52 (لاتزال حية تنمو بعد ربع قرن)

أنشأنا الجمعية المصرية لصحة المسنين عام 84 .. ..

أنشأنا وحدة طب وصحة المسنين بطب عين شمس عام 84 تتبع العميد ؛ بينما كنت قانعاً بمرتب الجامعة "الرمزي" و دخل "رمزي" أيضاً من عيادتي .. كان الزملاء من الجامعة ينهلون من خير الخليج وكان في قمة صعوده بعد الارتفاع الكبير لأسعار البترول (الذي له قصص كثيرة) .. ألقى إلي أحد الزملاء "بلقمة" في "الخبر" بالمنطقة الشرقية ؛ قضيت 14 شهراً منقطعة ؛ ودفعت ثمناً باهظاً من صحتي و صحة زوجتي ؛ وعدنا نلتمس السلامة و الشفاء قبل حرب الخليج بشهور .. "لا توجد في أموال العمل بالخليج بركة" هذه خبرتي ..

قبلها 1978 ؛ 1988 ؛ أدرت مؤتمرين كبيرين ؛ أحدهما : المؤتمر السنوي لعين شمس بعنوان "و بالوالدين إحساناً" و قد أثر في تنشيط العمل الأكاديمي في مجال دراسات المسنين على مستوى البلد ..

و الآخر : سكرتارية المؤتمر العالمي السنوي للاتحاد الفيدرالي للصحة النفسية ؛ و قد رشحني له تاريخي في إدارة المؤتمرات .. و كما هي العادة كوفئت بجزاء سنمار .. ..

اجتاز مشروع قسم طب و صحة المسنين و بروتوكولاته لجنة القطاع الطبي بالمجلس الأعلى للجامعات و أصبح على مكتب الوزير ..

انطوت فترة نضج عبرت بها وحدة طب المسنين مراحل نمو حاضنة لها أقسام باطنة ؛ ثم العصبية ؛ ثم قرار وزاري مرتقب بإنشاء قسم طب و صحة المسنين بجامعة عين شمس .. أول قسم بعد قسم طب الأطفال .. لا ننسى أن نسجل هنا الوجه الطيب لهيئة الفولبرايت للتبادل العلمي ؛ فقد مولت نفقات سفر لعدد من العلماء في الاتجاهين في علوم الأعمار خصوصاً الاجتماعية و الإكلينيكية .. كانت علاقة متبادلة جادة فتحت لنا أبواباً على العالم في مجالات شتى بلغت الستين ؛ ومد لي رئيس الجامعة سنتين لظروف القسم الجديد تحت الإنشاء ؛ ونفدت من هذا الامتداد سنة (قطعها قرار الرئيس مبارك بأن يترك كل إداري موقعه ؛ و اعتذر لي رئيس الجامعة)

و سلمت المشروع لمن رشحهم مجلس الكلية .. كنت قد أتحت الفرصة لأعضاء هيئة تدريس من أقسام الباطنة و العصبية و الصحة العامة في صورة بعثات إلى مالطا و مينسوتا .. شجع هذا بعضهم إلى أن ينضموا إلى قسم طب و صحة المسنين الجديد .. و طبعاً كان لكل منهم أجندته الخاصة ؛ و لكل قسم اتجاهه الخاص للتنازل عنهم للقسم الجديد ..

و لم يكن منطقياً أن أبقى في القسم الجديد "ذيلاً" بعد أن كنت "رأساً" .. و تراجعت إلى موقعي بقسم الطب النفسي و تركت مستقبل قسم المسنين (ابنتي) إلى اليم بحراسة الله .. ..

وصمد القسم تحت الرئاسة الجديدة بالدفع الذاتي الذي وضعته في بنائه سنين طويلة .. ..

و وجدت جبهة جاهزة للعمل فيها ؛ و هي إدخال طب نفسي المسنين الحديث ؛ و لم يكن قد تحمس له أحد حتى الآن .. ..

و انتقلت البذرة إلى جامعة حلوان فجامعة القاهرة في درجات مختلفة من التحقيق .. كانت الأمم المتحدة تمد يدها لنا لدفع طب المسنين من خلال برنامج عهد به إلى جامعة مالطا (وكان المرشح الأصلي لها نحن لولا ... و لهذا قصة أخرى) .. أقمت جسراً علمياً تدريبياً مع مركز المسنين بمالطا ذهاباً و إياباً ؛ و أعطينا جرعات جيرباتريا لعدد 140 مصرياً من الطب و التمريض أساساً .. تفرقت

بهم و بهن الأيام ؛ و بعضهم بدأ رحلة مستقبل كامل في طب المسنين في مواقع مصرية و عالمية تلقفتهم لما اتضح أنهم يبشرون بالتفوق

من خلال تعاون فني بين قسم الطب النفسي جامعة عين شمس و نظيره في جامعة لندن لتطوير تعليم و تدريب ممارسين للطب النفسي المعاصر سافرت لدراسة ما هو على الأرض من طب نفس المسنين في عدة مواقع إنجليزية أكاديمية ؛ كانت قد تمت ثورة تصحيح في الخدمة الصحية عموماً في إنجلترا أتت بالكثير .. ..

عدت قانعاً أن قد حصلت على تصور كامل و حديث لإدخال طب نفس مسنين مبتكر يناسب ظروفنا من خلال كونسورتيم مع نجوم طب نفس المسنين من أساتذة إنجلترا .. أجرينا تأهيل 90 طبيباً نفسياً في منتصف التيار بدورات مكثفة مشتركة ..

و بدأنا عيادة الذاكرة ..

و سجلنا رسائل دكتواره في طب نفس المسنين ..

و بدأنا نشاط جمعية ألزهايمر مصر ..

كل هذا الزخم وضع طب النفسي للمسنين على واجهة عالية ..

مرض ألزهايمر 70 سنة ..

جمعية ألزهايمر مصر تُقبل عضواً كاملاً في ألزهايمر العالمية ؛ محلياً تُصنف ألزهايمر مصر بأنها من الجمعيات المدنية الأكثر نشاطاً و إحداث أثر في الرأي العام ..

ركزنا على التوعية لكل فئات المجتمع بكل وسائل الإعلام المتاحة ..

أصبح ألزهايمر على كل لسان ؛ و بدأت توقعات الناس في الخدمات ..

أمامنا طريق طويل .. ..

أصبت بوعكات صحية حملتني نحو حافة الخطر ؛ ثم الله سلم ؛ و اضطررت إلى تخفيض جهدي و قد عبرت السبعين ..

جمدت العمل في عيادة البلد .. ..

اختصرت رحلة العذاب اليومي في السواقة في زحمة المرور الدائمة ..

تفاقم الشعور بعدم الأمان لدى زوجتي ؛ و أمعنت في تضييق الخناق عليَّ ؛ و توترت العلاقة بشدة ؛ استمرت رعايتي لزوجتي المسنة المريضة رغم عدوانيتها و أنانيتها .. ..

شغلت نفسي بفكرة "التعرض الزوجي الآمن و الأنسب" – لاحظت حالات كثيرة مثل حالتنا فتر فيها الحماس للآخر – و البحث عن صيغة تستوعب ذلك ..

قسمت بيتي بين المهندسين بجوار العيادة و مساكن العبور في نهاية أسبوع طويل ..

نجح النظام هذا – و لو ظاهرياً من وجهة نظري – في السماح لي باحتمال الحياة ؛ و لزوجتي بتنفس الصعداء من واجبات البيت ؛

ولا أقول الزوجية ؛ فقد كانت معفاة منها منذ 1990 لأسباب صحية .. ..

في صومعتي هذه بمدينة المهندسين أكملت كتاب "صحة المسنين" إصدار الأهرام 2001 .. ..

كان شعاري في هذا السياق و هذا العمر أن الحاجة الأساسية هي إلى "الحب و الحرية" .. ..

وزاد وزني و دخلت في (المتلازمة الميتابولية ×) ؛ ضعف سمعي و توازني ..

تعاظم في الشتاء موجة اكتئابي البيولوجي السنوي ؛ و أردد خلف صلاح عبد الصبور : "ذات شتاء أموت وحدي" ؛ و لم يحدث بعد العيد الماسي 75 سنة .. ..

أحمد الله أن عبرت كل هذه السنين ؛ أطول من عمر أبي و عمر أمي الذين توفيا في عمر 62 – 64 .. ..

و لكن تلك السنين جاءت كذلك بكثير من العجز و قيود الحركة و النوم الهانئ .. ..

اذكر للتاريخ أن كثيراً من الأدوية ضررها كبير ؛ و لا يظهر قبل استعمالها فترة ؛ و نفاجأ بأن الشركة المصنعة تسحب الدواء بعد أذى مستعمليها ؛ حدث لي ذلك مراراً .. ..

اذكر للتاريخ أثر التدخين ؛ بكل درجاته و أيامه ؛ تفسد أجهزة مهمة في الجسم إلى الآن و لو بعد حين ؛ حدث لي ذلك ..

زيادة الوزن بعد الأربعين تتسلل إلينا من خلال نظام حياتنا الخاطئ (ثلث لبطنك طول العمر من فضلك) .. قضية ثقافية يشترك فيها الغني و الفقير ؛ حدث لي ذلك ..

ذبلت شعلة زواجي بعد 45 عاماً من الإصرار من جانبي على حماية هذه الشعلة ؛ لعلها طبائع الأمور .. من يدلني على أطوال أعمار لزوجيات في العصر الحديث !؟ .. ..

في نوفمبر 2009 حُملت إلى غرفة إنعاش القلب في حالةٍ حرجةٍ ؛ و لكنَّ اللهَ سلَّمَ ؛ و بعد أيامٍ كان عليَّ أن اجتاز نقاهةً طويلةً ..

قَبلِتْ زوجتي أن ترعاني لأيامٍ قليلةٍ فقط ؛ ثم تخلت عني ؛ و أشارت بأصبعها تجاه "المهندسين" : أن فارقني ؛ فلا توجد صيغة لرعايتنا سوياً في بيت واحد ..

و لما تلكأت أسابيع .. اتخذت هي القرار من طرف واحد و بدون تفاوض :– "سأخلعك ؛ و لا تعد إلى البيت هذا المساء" ؛ و لم أصدق أذني ؛ و لم يكن لدي جهد للمقاومة ؛ انسحبت إلى صومعتي بالمهندسين ؛ و تركت لها الشقة راضياً ؛ و استقر الصراع في المحكمة على رفض الخلع و اعتبارها ناشزاً .. ..

عاملتني كما عاملها الصهاينة في يافا 1948 ؛ فضلت أن تنهي حياتها في حضن أختها الأرملة تدعي أنني "جرحتها" .. صدقها أهلها

اعتبرت أسرتها (إخوتها) أنه لم تعد هناك علاقة بين أسرتينا .. ..

ترفض رؤيتي إلى الأبد ؛ اترك الحكم لله .. ثبت أن العمل هو دوائي و شفائي .. ..

جاءنا قرار ألزهايمر العالمية بعقد مؤتمرها السنوي 2013 بالقاهرة بالتعاون مع ألزهايمر مصر ..

نظرت حولي في أحوال البلد و دعوت الله أن تتحسن بحلول 2013 ؛ و أن يعطي هذا المؤتمر دفعة لطب ألزهايمر مصر ..

استحدثنا – في جامعة عين شمس – دراسات "فوق العليا" لطب نفس المسنين للحاصلين على الماجيستير و الدكتوراه في الطب النفسي أو طب المسنين ..

جاءت أخيراً فرصة لتأهيل شباب ينوي أن يملأ الميدان معي و بعدي ..

أحمد الله أن شاهدت هذا التحول يبدأ في مصر و العالم العربي .. .. ..

يعطيني أملاً طال غيابه و يأسنا منه ؛ أسميت ما يحدث بأنه " الفوضى الخلاقة" ؛ أي الفوضى التي تهدم المرفوض و تبني المطلوب سارعت إلى قلمي اسجل و انصح و أتأمل ؛ و رأت الأخبار أن تجعلني أطل بأفكاري على ميدان "الفوضى الخلاقة" ؛ لهم وجهة نظر بالطبع .. في الميدان الآن شظايا النظام الذي هوى رأسه و جهاز شرطته .. ..

في الميدان الآن : اضطراب و قلق و ضباب ؛ في الميدان الآن يتخلق جنين نظام جديد ؛ قد يولد مبتسراً ؛ و قد ؛ و قد ؛ حسب كيف نديره .. عشرات الملفات الهامة تتفتح يومياً و تحتاج مناقشة .. ..

سألقي بدلوي في بعض الملفات التي سبق لي دراستها ؛ و كونت فيها رأياً ؛ واجب أن اطرحها للمناقشة العامة ..

"كتاب الأخبار" يستعجلني ؛ لهذا انتقي و اجتهد و مطلوب أن اسلم "السكربت" بعد 24 ساعة من الآن ..

لاحظت أن كثيراً من آرائي مشتركة مع آخرين ؛ حتى من الشباب مفجر الانتفاضة ..

اليوم فقط يرفعون شعار "مطالب الفقراء أولاً" ؛ اطمأن قلبي أن الثورة لن تسرق .. ..

و أرجو أن يكون للجميع قناعة بأن "الطبخة الجديدة" تكون على "نار هادئة" أطعم .. .. ..

الفصل الرابع

كلام في الحب و الحرب و الطب

الزمن خريف 67 ؛ و المكان موقع عسكري اسمه "حبيب الله" على شاطئ القناة الغربي أقرب إلى السويس ..

كنا نعيد بناء الجيش للجولة القادمة و نحرس الحدود في نفس الوقت ؛ و أنا مكلف بوحدة طبية عسكرية زادها مزيج من العائدين من "النكسة" و جدد مجندون و متطوعون : مشاعر متباينة ؛ و أسود تلعق جراحها و تحاول أن تستوعب ما حدث لها في الأسابيع الماضية ؛ و أشبال تصطك أسنانها خوفاً و هي تلقى إلى الميدان "من الدار إلى النار" ؛ لا تفهم ماذا حدث بالضبط و إلى أين نحن سائرون ..

كنت أكبرهم سناً و تجربةً ؛ لم أكن احمل أوهاماً مما حدث و مما يمكن أن يحدث .. لا وقت للعقاب ..

الحياة اليومية روتينية في كتاب الصمود ؛ على التصاق بالعدو .. ننام الليل في خنادق و لا شئ غير الخطر ؛ أشهد للتاريخ أن الروح المعنوية للقوات في الميدان ظلت عالية .. ..

كان دوري تكتيكياً إدارياً ؛ اقود الوحدة الطبية حسب عقيدة القتال السائدة و هي أن تكون وسط المقاتلين أو خلفهم قليلاً ؛ و في هذا النسق كنا في الخطوط الأمامية ربما لنعطي إحساساً بالأمان للمقاتلين و تقليص الخسائر بسرعة الإخلاء و التدخلات السريعة ..

لم يكن هناك بطول الجبهة من رأس العش إلى رأس علم طبيب نفسي واحد في التشكيل ..

المهم : أوجدتني الظروف أن أكون أنا هناك .. ..

و استقطب وجودي حالات كثيرة من العناء النفسي ؛ الطب ينبت في الميدان و ليس في الكتب ..

و كان ورائي قائد منطقة السويس ؛ شجعني .. ..

نبت الحب في قلبي في هذا الموقف للجنود ؛ و فاض الحب مع العلم في مداواة هذه الجراح ..

كنت خائفاً مثلهم اشكو الغربة كذلك ؛ أشركوني في خبراتهم الصعبة ؛ و كيف يساعدون أنفسهم بالصبر و السحر .. ..

آهٍ لو كان معنا من يسجل هذه الخبرات الطبية النفسية ؛ كثير من الفرص قد ضاعت لدراسة هذه التجارب و أثرها على تنمية الطب النفسي العسكري ..

أشكال و ألوان من الأحجبة و التعاويذ و الطواطم تتنوع من ثقافة لأخرى ؛ و كانت تساعدهم بدرجات متباينة ؛ و لكن كان عند الجميع الوعي بأن الطب النفسي المعاصر لابد أن يساهم في تخفيف هذه المأساة ؛ و من أسلحة الطب النفسي الحديث الدعم الاجتماعي يأتي في المقدمة ..

لن يعيد التوازن النفسي إلى مجند طال بعده عن أهل كانوا يعتمدون عليه .. يصبح الغياب بدون ترخيص هو المقامرة الواجبة للكثيرين منهم ؛ و تتعقد الأمور بالعقاب أو الذنب .. إن أسبوع أجازة "شريف" بتوصية من طبيب عسكري يجنب الآلام و يشفي الصدور ..

و كنت أوصي بهذا لمن يحتاجه و لو لم يفصح عن حاجته خجلاً ؛ و يتفهم الآخرون .. و لا تحدث "هستيريا المجاميع" كما يحذر منها النفسيون التقليديون .. كل شهر مرة يصل إلي مجند متشنج يحمله عشرة من رفقائه و قد تقمصه "عفريت" يتحدث العربية الفصحى ؛ و يطلب له جلباباً أبيضاً و أن يريحوه ؛ و يضحك الجميع و يباركون له بالأسبوع في البلد ..

شحنتني هذه التجربة لأن اعمل بعد سنة في وحدة الطب النفسي في المنطقة المركزية ؛ يرشح إليها كل حالات "الإصابة النفسية" .. كان الجو كئيباً و هم يعهدون بهذه الحالات إلى قضاة من الطب "البارد" لا يجيدون التعاطف معهم ؛ و لا تقوم بين المعالج و "المصاب" العلاقة العلاجية الدافئة ؛ يخيم على العلاقات تحديد "درجة الإصابة" ؛ و الحاجة إلى تعويض ؛ أو تسريح من الجيش ؛ و يتدخل الشك و الخوف و الطمع و الفساد أحياناً .. ..

كنت اتعاطف مع الجروح النفسية للمقاتلين الشرفاء أو الضعفاء ؛ فقد كنت واحداً منهم .. كنت أبكي معهم و من أجلهم ؛ و نسيت نفسي و أنبت إلى الله .. ..

طالت الحرب ؛ و طال احتجاز القوات في حالة الاستعداد القصوى شهوراً و سنين ؛ و ازداد الضغط على قومسيون الطب النفسي للفرار من التجنيد أو البقاء فيه زمناً .. ..

أحببت نفسي و أنا استلهم الله القوة ؛ و كان من منن الله الكبرى عليَّ أن عبرت هذه الفترة بسلام ؛ حماني ربي من شيطان الإنس و الجن يريدون شراء ضميري بأي ثمن .. أي ثمن .. ..

حسنة أخرى من حرب الاستنزاف أقضيها بمستشفى القوات المسلحة بالمعادي و أرى طائرات العدو تخترق أمامي المجال المصري لما وراء كل دفاع إلى العمق .. ..

و تضيع كل آمالي في السفر إلى الخارج للحصول على الزمالة من بريطانيا ؛ و إن تسرب آخرون لا أدري كيف و لم يعودوا حتى الآن

أكتوبر 73 كنا قد أعددنا مستشفى كاملاً للطب النفسي العسكري بمنشية البكري ؛ و استعداداً للحرب ثم تكليف أعداد من الأطباء النفسيين من الصحة و الجامعات ..

كفانا المقاتلين شر الأعداد الغفيرة ؛ فقد كانت الحرب صاعقة قصيرة و"الفلسعة" أنجح من عام 67 ونوعية الجنود وظروف الحرب مختلفة ..

و أردت أن اجعل من إسعاف حالات إخلاء الذين يظهر عليهم المرض النفسي أو الإصابة ؛ و هي بالتعريف خليط من كل شئ ؛ المصابون القدامي و الحالات المؤقتة و الساعون إلى التعويض و الإعفاء من العسكرية ..

و لم يكن بد من اتباع الأسلوب العلمي بتقسيمهم إلى مجموعات تخضع كل منها لبروتوكول مختلف متسق ..

و ما أن أعلن السادات أن هذه آخر الحروب تنفست الصعداء ..

أبدأ حياتي الجامعية الجديدة و قد فقدت عشر سنوات من الأقدمية بلغة الوظائف ؛ و كنت قد كسبت عشر سنين من النضج ..

أول انطباع لي هو أن الجامعة قد ساء وجهها ؛ و كان من فيها زاهداً فيها مركزاً على مصلحته الشخصية و معتمداً في الأمان المادي على الخليج .. ..

كنت حراً أخطط لسنواتي القادمة ؛ و كان تحت إبطي رسالة دكتوراه فاخرة أشرف عليها معي أساطين الطب العصبي و علم النفس (عباس حلمي حسن و مصطفى سويف) ؛ و أذكر في الكتاب أحمد عكاشة إذ جاء من وراء البحار بحماسه و خفة دمه ؛ و أزالت علاقتي به آثار الإحباطات الماضية .. ..

و تجدد حلمي القديم بأن أرى "لندن" ؛ و أسير في طرقاتها الذهبية .. و هذا أثرها ظاهر على أداء عكاشة في ساحة الطب النفسي في مصر .. و كانت المنن الكبرى حاضرة ؛ و اخترت الانطلاق إلى الغرب لزيادة التعليم ؛ بديلاً عن الانطلاق نحو الشرق للمال ..

و ساقني إلى طريق طب المسنين خلو المشهد العربي كله من علماء و أساتذة فيه ؛ و صلحت كل مؤهلاتي المعرفية و الاجتماعية لسياحة علمية في الغرب ؛ و كانت شوارع لندن مبلطة بالذهب ؛ و كذلك باريس و أوسلو و غيرها .. ..

و اذكر في الكتاب فولبرايت السناتور الذي من خلال مؤسسته للتبادل الثقافي أعطاني فرصة لأن ارسم معالم طب للمسنين في مصر

و منسوتا ؛ كان هذا جسراً بين الوجه الحسن للأكاديمية الأمريكية و المصرية احتاج إدارة عادلة و أمينة من طرفيها ..

و كان لنا وحدة لطب المسنين ثم قسماً كاملاً بها ؛ و هي قصة كفاح طويلة أدرتها بمساعدة من الكثيرين و بتعويق من الكثيرين كذلك

ويستمر القسم فتياً حياً مع غيبتي عنه ليلة ولادته ؛ واذكر هنا حسني مبارك ؛ إنه كان عبداً غبياً لا يرحم و لا يترك رحمة ربه تنزل عليَّ

اكتب هذا و أحمد الله أنه حافظ على هذا البناء من السقوط حتى يقيض الله له جيلاً من أبناء الوطن المخلصين الشباب و قد رأيتهم أخيراً ..

أحب جلستي على كرسي التدريس للطب النفسي للكبار ؛ اتفاعل مع بعض الشباب الذين تلمع أعينهم و عيونهن ذكاءً و رغبةً في النمو و سعياً للتقدم ؛ إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .. ..

أسعد عندما يلقبني الإعلام :– "رائد طب المسنين" ؛ و "عاشق المسنين" ؛ و "مؤسس طب المسنين بجامعة عين شمس" .. .. "1977 – 2011" رحلة بناء و نمو ؛ لعلها تحسب لي عند الله عملاً صالحاً ..

المهم أنه كان يقودني في هذا المجهود "الحب وحده و هو الحب وحده كفاية" ..

كلام في الطب و الحب و الحرب :-

كم هي معقدة تبدو حياتي إذا حاولت تبسيطها ؛ مهما تحدثنا عن محددات السلوك في أحد هذه الدروب أو تلك فلن أجد في حياتي انحرافاً ذا بال عن القصص المستقرة المكررة ..

يمتهن الطب من أعد له مجتمعه (الأسرة و الأوسع) سلسلة من الحوافز و التوقعات تصب في حاجة المجتمع أساساً ؛ و قد يحب المرشح لهذا المجال أو يقبله على مضض .. كنت كفتى أصبو إلى مجال الإنسانيات و الحقوق ؛ حدث التفاوض قبول الطب النفسي ؛ و انتصر المجتمع لهذا الاختيار و تبناه ؛ و كان المجتمع بحاجة إلى تنمية الطب النفسي .. ..

و تزايد الإحساس بالقيمة و الفائدة مع هبوط الحرب علينا .. صحيح أنه لم يكن لدينا تأثير على سير الحرب ؛ و لكن عشت تجارب إنسانية نادرة تعرف الكثير عن أسرار الناس و السلوك ؛ و تثري شخصيتنا المهنية و الإنسانية في ذاكرتي مخزوناً كبيراً عن خبرات البشر في حلبة الصراع ..

اكتشفت الحرب مبكراً جداً و أنا حول السادسة من عمري ؛ و كانت الحرب العالمية تجري على أرض مصر في الصحراء الشرقية .. كانت الطائرات الحربية الألمانية تزورنا في المساء و كنا نهلل كصبية بصفارات الإنذار و بطاريات الدفاع الجوي و نحن نصيح كلما قيلت صيحة "طفوا النور" ؛ ثم "أمان" .. و استمرت حالة الحرب العالمية سنين حتى عام 1945 ؛ لقد تربيت على أن الحرب حقيقة من حقائق الحياة اليومية ؛ و تعلمنا التكيف مع متطلبات الدفاع المدني ؛ الحكم العسكري .. في المنصورة كان وراء بيتنا "مخبأ " ؛ و أمام كل بيت حائط ؛ و اذكر شعارات الأفيشات "إعادة الجان إلى الزجاجة" .. ..

ما كدنا نفرح بانتهاء الحرب 1945 حتى دخلنا في موال حرب فلسطين 1947 – 1948 – 1049.. تعلمنا السياسة الدولية في مظاهرات "يسقط وعد بلفور" ؛ و كنت أُحمل أحياناً على الأعناق لاهتف ؛ و كنت "أفلسع" أمام هجوم البوليس و الهجانة بعد الصياح في المظاهرة و الهروب في دروب المدينة من أسيوط كانت المظاهرة تنتهي بي في مكتبة البلدية و كم استمتعت بذلك و استفدت

و لا أنسى استمرار الإحساس بالخطر و نحن نتابع القنبلة التي في حجم "البيضة و تقتل سبعين ألفاً" ..

وصلني الخبر عن حرب فلسطين من طابور من نساء غزة لاجئات يحملن الخضر في سوق روض الفرج .. ..

و استشهاد خطيب لفتاة من أسرتنا و هو ضابط حديث التخرج في فلسطين ..

كنت في سن المراهقة و أنا افزع لهذه الحقائق عن الحرب التي لم نكن مارسناها حتى الآن .. ..

و كنت في عمر بدأت أفكر فيه ؛ و لم يكن ممكناً أن أحب الحرب و لا أجد داعياً لحدوثها و مآسيها .. ..

خاصمت الحرب منذ تلك اللحظة ؛ و لكني تقبلها كحكمة : "لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض" ؛ و لم يكن في بالي و لا على خط حياتي أن أقضي زهرة شبابي محارباً .. و لهذه الحكاية قصة أخرى ..

اقفز على الزمن لأصل شريط ذكريات الحرب في أعوام 1955 – 1956 ؛ و قد جرجرنا العدو الإسرائيلي إلى الحرب .. مارست الحرب مكرهاً ؛ و هو كره لكم ..

أولاً في أوقات الفراغ نتدرب على قتال الشوارع و العصابات ثم اشتباك مع العدو على هامش الحروب النظامية ..

و تخرجت في كلية الطب و اقتربت من عالم الحرب لأغراض مهنية غير حربية ؛ فقد كان عبد الناصر يبني جيشاً جديداً للقاء جديد مع العدو بعد 56 .. ..

و اقتضت سياسة عبد الناصر في إعداد الدولة أن يجرنا إلى الكلية الحربية ؛ ضاقت فرص التقدم في الجامعات و معاهد البحوث ؛ و لم يكن أمام ذوي الطموح سوى : ☚ الهجرة ؛ أو ☚ السلك العسكري ..

و لأنني "ولي العهد" فقد اختار والدي لي السلك العسكري متطوعاً ليضمني إلى جواره و بعده ..

نظرة إلى الأمام ..

و قد شرحت في فصل سابق لماذا و كيف و لمن اكتب اليوم و لأول مرة ؛ بعد تردد و تشجيع ؛ و كنت اتصور – كما يفكر كتاب السيرة الذاتية – أن اساهم في كتابة تاريخ هذه الأمة كما بصر النقاد .. و اترك للقارئ أن يستفيد من عبرة التاريخ لفارس قضى 77 عاماً على هذه الأرض .. و كنت بداخلي أزهو بتاريخي ؛ و لا أجد غضاضة بل أرى أنه واجب علي توجيه رسائل إلى شباب هذه الأمة ؛ زكاةً على مَنِّ الله عليَّ من علم و خلق ..

و سابقتني الأحداث و أنا اكتب ؛ ورأيتني أعيش "ربيع العرب 2011" ؛ و رأيتني أتوق للتعليق على ما حدث و ما قد يحدث ؛ و تكون هذه الرسائل امتداداً لما كتبته عن الماضي ؛ و رأيت الناشر يحثني على هذه المساهمة ؛ و شكرته ؛ و حمدت الفرصة لاختبر ثقافتي السياسية ..

و لهذا أعدت تنظيم الكتاب في ضوء هذه الأهداف ..

لا اطلب من القارئ أن يطيل كثيراً في شهادتي عن الـ 77 عاماً التي أخذتني الحياة فيها إلى عوالم من الدراسة و السفر و ممارسة الطب و تعليمه ؛ و "كاريير" عسكري استمر 18 عاماً .. أخذني إلى أكاديميات الغرب و الشرق ؛ و معارك 62 في اليمن ؛ و 67 في سيناء ؛ و 73 و الاستنزاف على حائط الدفاع غرب القناة ؛ و 20 عاماً بجامعة عين شمس كانت مرعى مشروعي الكبير "طب المسنين و طب نفسي المسنين" ؛ حياة مثمرة مليئة بالتحديات و النجاح – و أحياناً الفشل طبعاً – .. لم اتوقف لحظة لاتقدم لإحدى الجوائز ؛ و لم يرشحني أحد لإحداها .. و لم أحمل مرارة لذلك .. و ثلاثون عاماً في العمل التطوعي الخلاق اخترتها بدلاً من السياسة الفجة في حزب الأغلبية و هوامشه .. و لم انظر إلى مكاسب الزملاء الذين متعهم الله بالمال أو بالجاه أو بالأولاد .. و اتمنى أن يعطيني هذا التاريخ صدقية تسمح لي بأن أدلي بدلوي في "الفوضى الخلاقة" التي عمت البلاد بعد 25 يناير 2011 ..

لم أفاجأ بما حدث ؛ فقد كان منطقياً و في وقته ؛ و بسرعة كونت فكرة إطار "الفوضى الخلاقة" ؛ و كنت اشارك كوندليزا رايس تنبؤها بحدوثها ؛ و إن اختلف مقصد كل منا .. هي تطلبها و توصي "بخلقها" بأي طريقة لتكون آلية لتحقيق "شرق أوسط جديد" حسب الرؤية الأمريكية و الإسرائيلية ؛ و أنا أرى "الفوضى الخلاقة" باعتبارها الآلية المتاحة لنا للتغيير الكبير المتسع من أول أنظمة الحكم إلى المشكلات الحياتية اليومية ..

إسقاط رأس الحكم الأتوقراطي الفاسد الفاشل هو أسهل ملف و أسرعه ..

و لكن اقتلاع الجذور و الأساسات للنظام المتهاوي يحتاج إلى "مقاول هدد" كما يقول المصريون ..

و لكي تهدم و تبني تحتاج شرعية من صاحب البيت ؛ مجرد النزول إلى الشارع مهما كانت الأعداد و الأيام لا يعطي شرعية .. الشارع ملك للجميع : "الثوار" و "أعداء الثورة" و البلطجية و العملاء و الموتورين و الطامعين و الحالمين و الخونة .. ..

تولد شرعية بناء نظام جديد من صراع القوى المختلفة الثورية و الرجعية و الانتهازية .. ..

هذا يقتضي حواراً و صداماً و وقتاً و رؤيةً .. الاستفتاء و صناديق الانتخاب و اللجان و التظاهر و التطاحن – و ممكن الاقتتال – آليات الديموقراطية ؛ و تحديد هوية الدولة و دستورها و مؤسساتها القادمة ؛ مرجعيات و فلسفات و نماذج لابد من دراستها و تحليلها و الاستفادة منها ..

لا يهرب من ساحة "الفوضى الخلاقة" ملكات حساسة اعتاد الناس السكوت عنها تصوراً لأنها تهدم السلام أو الوحدة أو المواطنة .. و لا حياء في الدين أو السياسة ..

إذا كنا فعلاً جادين أن ننتقل من الأتوقراطية المتخلفة إلى ديموقراطية علمية و مدنية فإننا نتكلم عن شهور بل ربما سنين من الفوضى الخلاقة .. لأننا نتحدث عن فجوة هائلة بين "العالم النامي" و نحن ؛ العالم "النائم" .. علماء المستقبل يؤكدون أننا سنصبح قريباً حديقة حيوانات (سفاري) يأتي إليها سكان الشمال الديموقراطي الصناعي للفرجة علينا .. لم يعودوا بحاجة إلينا كسوق فنحن تحت حد الفقر .. و لم يعودوا يفكرون في استعمارنا لشفط مواردنا الطبيعية فلم يعد تقدمهم التكنولوجي يعتمد على "خيراتنا" .. ..

هذا هو التحدي الكبير لبقائنا قبل رفاهيتنا الذي قصر حكامنا "العسكر" في استيعابه .. ..

و لعل الله أرسل إلينا "الفوضى الخلاقة" "لنخلق" تقدماً يحفظ علينا و على أبنائنا كرامتنا .. ..

إن العالم الغربي (الإمبريالي و الاستعماري سابقاً) يعيد حساباته الآن تجاه ما يحدث و ما قد يكون ..

نحتاج لمناقشة ملف علاقتنا بهم ؛ فهم مثلاً يحتاجون عمالة وهجرة مؤقتة منا ؛ ونحن نعاني بطالة كاسحة ؛ و يمكن أن يحدث تعاون كريم

إن الإغلاق الذي فرضه علينا نظام حسني مبارك بالذات في علاقتنا بأفريقيا و دول حوض النيل قفل علينا و عليهم فرصاً هائلة للنمو و الاتحاد و مقاومة الاستعمار الجديد و الفقر و التصحر ..

هذا ملف خطير و له أولوية في التناول ..

إن الطريقة التي وصل بها حسني مبارك إلى الحكم و محاولات الاغتيال المتكررة و الشيخوخة مسؤلة عن فقر الإبداع في حل المشكلات ؛ و تجميده لكل فكر أو إصلاح أو نزاهة .. ..

إن حكمه كان أسوأ نهاية لجمهورية العسكر ؛ و يلزم أن نناقش في "الفوضى الخلاقة" ملامح "جمهورية ديموقراطية مدنية إسلامية" .. مخاوف أقباط مصر من احتمالات أن يسود مصر فكر متطرف إسلامي يقابله فكر إسلامي مسيحي يشعل حرباً أهليةً أو يؤدي إلى انقسام مصر إلى دولتين أو أكثر على أسس دينية عرقية هي مخاوف مشروعة ؛ و لكنها مبالغ فيها و مسيسة ؛ و أول من زرع في هذا الحقل حسني مبارك باستخدام الموضوع "كفزاعة" يبرر بها حتمية و أهمية سياسة "الاستقرار و الاستمرار" برعايته ..

إن "الفوضى الخلاقة" هي الميدان الذي يناقش فيه هذا الملف بصراحة و أمانة ..

إن أمة تريد النمو و التقدم أولى بها المحافظة على التعددية الجميلة الفاعلة التي عاشت قروناً ؛ و لم تشتعل الفتنة فيها سوى في فترات التخلف .. إن مسلمي المهجر أكثر من أقباط المهجر بكثير ؛ و أقباط المهجر ولدوا و تعلموا في مصر و هاجروا ضمن نزيف العلم و استقطاب الغرب لهم .. ..

و أولى بأقباط المهجر أن يساعدوا في التغيير و الانتقال إلى الديموقراطية ؛ و في المساهمة في حل مشاكل مصر و المنطقة بما منَّ الله عليهم من فكر و "لوبي سياسي" يدافع عنا و هو ينتقدنا .. ..

النمو السكاني عجز عن استيعابها "محافظة مصر" ؛ و عجز حكام مصر من الملوك المصريين العسكر .. ..

و لذلك انحدرت الأحوال في مصر إلى الحال الواضحة من تدنٍ في كل المستويات حتى البشرية .. ..

هذا ملف خطير لميدان "الفوضى الخلاقة" ؛ هل نحتاج إلى محمد علي الكبير جديد ؛ أو مهاتير محمد مصري ؛ أو أردوغان مستورد ..

الدين أساس الفضيلة المصرية و "البركة" و طلب العون من الله دائم و يومي عند جميع المصريين صلاةً و دعاءً و بكاءً و حجاً و عمرةً و السيد البدوي و سانت تريزا و البخور و الشموع و شفاعة آل بيت الله و القديسين ..

و يقبل الله الدعاء دائماً ؛ و يشفق بالمصريين ؛ و يجنبهم كثيراً من الكوارث و لكن .. .. لا ينزل الله مائدة من السماء كما طلب عيسى بن مريم .. علينا أن نعمل و نعمل .. و نأخذ الشعب المصري ؛ خصوصاً الأمي و القبلي هو شعب "محافظ" جداً ؛ بطئ التغيير ؛ و لقد استقرت فيه مفاهيم و عادات و نظرة إلى الحياة من خلال تاريخ طويل على ضفة النهر و مع الزراعة و حكم "الملك الإله" و كرامة الكهنة الأوفياء الذين يتخذهم الناس "زلفى" .. ..

إن تحريك هذه المحافظة صعب ؛ و لم يؤثر فيها رسالات الله كثيراً .. فالمصري المسلم و النصراني فرعون صغير ؛ يعشش في عقله الفكر "الخرافي" البدائي .. و لم يبال كثيراً إذا كان "الملك الإله" أيوبياً أو كردياً أو فاطمياً أو ألبانياً أو تركياً أو نوبياً .. فقط هم المصريون خير "أجناد" الأرض ..

التحديات الحديثة للمصريين في القرنين الماضيين مثل الحروب العالمية و إسرائيل و الانفجار بالأسباب ..

ملحوظة : حذرنا الله إذا أصررنا على نزول المائدة من السماء كآية على قدرة الله ثم لم نعمل و نظهر إيماننا و توحيدنا لله فإن اللعنة تقع علينا و نتعرض للإبادة الشاملة ..

إن من أهل الكتاب في بلدنا من يلجأون إلى الابتزاز أو الاستقواء بالأجانب .. هذا يقتضي المناقشة و التحليل ..

ملف خطير جداً انظر إليه من زاوية لم يتطرق إليها الكثيرون هو : علاقة الشعب المصري حكاماً و محكومين إلى اليهود .. كانوا في مصر مندمجين حتى نشاط الصهيونية و إنشاء إسرائيل .. ..

هل كانت استجابة العرب – مسلمين و مسيحيين – نحو إنشاء إسرائيل و التعامل معها صائبة ؟

هل كانت مراحل الحرب والسلام البارد إلا فرصاً لنمو إسرائيل العسكرية العدوانية حتى وصلت إلى ما نراه الآن من هيمنة على العرب

الفصل الخامس

خطورة الفوضى الخلاقة

هي ساحة التغيير ؛ قادنا إليها تساقط النظام الأتوقراطي السلطوي الذي حكم فيه العسكر بشرعية "الثورة" ..

و كنا قد يئسنا أو نكاد من استعمال آلية الإصلاح لعجز النظام عن البصيرة و انقطاع حبال الثقة فيه من الجماهير .. مشكلة الفوضى الخلاقة مع مصر اليوم :-

إن ثقافة الحوار – و هو الآلية الأصح و الأقرب لإدارة المفات – غير ناضجة بين أفراد و طبقات المجتمع المصري ؛ و ذلك لبعد الشقة عن العمل بالسياسة و التباين الفكري و العقائدي وسط الجماهير ..

و لهذا نتوقع و نقبل أن تكون آليات التفاعل صاخبة و زاعقة و أحياناً عبثية .. ..

و كما نرحب بالفوضى الخلاقة كساحة للإصلاح و البناء من جديد ؛ نخشى أن تستغلها قوى ترسخ التمسك بالقديم الفاسد أو احتواء قوى الظلام و التخلف .. و الحلول لا تأتي من "الصفوة و النخبة" المفكرة المنظرة بقدر ما تأتي من "الجذور" أثناء الممارسة .. ..

الرؤى الجديدة في السياسة و الحكم و العلاقات الخارجية و الاجتماعية و إدارة الاقتصاد ..

تنظيمات جديدة و فلسفات جديدة ؛ و اشتراك لأعداد و أصناف أكبر من الناس و أولويات .. ..

دوري أنا بعد هذه المقدمة أن اناقش و القي إلى ساحة الفوضى أفكاري في قضايا معينة ادعي فيها خبرة خاصة أو متخصصة .. لكي يؤتي الإصلاح أكله من خلال الفوضى الخلاقة يجب أن يعطى لها الوقت الكافي و القبول الفاعل و النفس الطويل ..

تستعمل كلمة "الثورة" و "الانتفاضة" لوصف ما قام و يقوم به "الثوار" من هز و تحدي النظام القديم حتى يسقط ؛ و قد سقط بسهولة .. و يرفعون شعارات المطالبة بالدولة المدنية و الحكم الديموقراطي .. و مازالت الرؤى غامضة و الجهود غير منظمة .. سيحتاج هؤلاء "الثوار" إلى العمل وسط الفوضى التي تلت سقوط أركان النظام القديم ؛ و سيواجهون كذلك "ثورة مضادة" و معوقات شتى .. الصبر و الإيمان سلاحا المظلوم ..

لا توجد نماذج جاهزة للاستيراد أو الاقتباس ؛ بل هي "خلاقة" بمعنى أن تبتكر و تخلق من "الفوضى" نظاماً جديداً يناسب الحاضر و

يعمل للمستقبل ؛ و لا يمكن التوقف طويلاً لصناعة نموذج كامل (دستور مثلاً) و المشاكل اليومية ملحة ..

المحافظات المصرية المتحدة :

القي بهذا "الحلم" إلى ساحة الفوضى الخلاقة 2011 غير حالم بل داعية بحماس شديد ..

انطلق من دافع أن المصريين أصبحوا 83 مليوناً و يتزايدون بانتظام لأسباب كثيرة ..

يحكمون مركزياً منذ آلاف السنين اعتماداً على أنه مجتمع زراعي يحيا على نهر النيل .. له نظام مركزي ؛ و الأراضي المزروعة شبه ثابتة ؛ و الزراعة غير عصرية تماماً .. ..

آن الأوان لكي تتقسم – ولا اقول تنقسم – مصر إلى 29 محافظة كما هي الآن مستقلة تجمعها فيدرالية مركزية .. .. المزايا كثيرة بل ضرورية .. **سياسياً :** سيكون لكل "محافظة" برلمان و حياة سياسية كاملة يتدرب فيها الناس على حكم أنفسهم و اختيار حكامهم و منهم حاكم البلاد ..

اجتماعياً : ستتضح أكثر الهوية الخاصة لكل محافظة و التي يفتقدها المصريون ؛ بل يكرهون محافظتهم و يهاجرون إلى العاصمة .. و لا يجد "الصعيدي" نفسه في القاهرة مثلما يجدها في "البلد" .. و يقبل فتات الرزق في المدينة و لا يصرف جهداً لتنمية "بلده" ؛ و تتكون حلقة جهنمية من الإهمال و الهجر و الضجر.. ..

لقد ارتفعت نسبة "التحضر" إلى 45 % بغير تخطيط ؛ وضاقت المدن بالعشوائيات وأصبح الريف منخفض اللياقة للعيش الكريم فيه

عندما تكون مسؤلاً عن محافظتك ناظراً إلى ثرواتها و فرص النمو في الانتاج و الخدمات ستعمل و تدرس و تتنافس و تتآخى مع مدن العالم المتقدمة .. ستكون واضح اللياقة لاستقبال الاستثمار المحلي و الإقليمي و العالمي .. و ستكون مولاً للمشاريع الفيدرالية ؛ و لا نقول السيادية ..

هذا الانشطار للبيروقراطية المترهلة صحي و يجدد الحياة في كل محافظة .. لا أريده يحدث بقرار فوقي بل ينبثق ذاتياً من خلال الحوار و التوافق في مناخ "الفوضى الخلاقة" ..

هذا النموذج الفيدرالي ناجح كما يعرف الجميع في دول كثيرة ناجحة .. إنه اتحاد بين خلايا مصرية لا يعطي مجالاً لأن ينمو شخص أو إقليم على حساب الآخرين ؛ و لا يسودهم و لا يستعبدهم .. لا فرعون و لا خليفة و لا سلطان .. هذه ديموقراطية أيضاً .. لا خوف على "القومية" أو المواطنة ..

البرلمان القومي و المؤسسات الفيدرالية منسقة لهذه المحافظات المتحدة ..

ستستوعب المحافظات الزيادة السكانية بسهولة و تعمر الظهير الصحراوي و تنكش عن الثروات في باطن الأرض و تنمي الطاقة الشمسية و طاقة الرياح و أنظمة رعاية صحية فاعلة .. كما كانت مصر سلة غذاء للعالم ستعود على الأقل تنتج طعام أهلها ..

لن يكون هناك استقطاب ديني أو مذهبي فالجينوم المصري واحد في جميع هذه المحافظات .. و من يأت ليعيش بيننا عليه أن يذوب في المجتمع المصري .. لن نحتاج إلى الهجرة و لا إلى الإعارة و لا على الخضوع .. بسهولة يمكن عمل تجارب في نظم و أيدلوجيات الحكم في محافظة أو أكثر بدون تعريض الدولة كلها للاهتزاز إذا فشلت تجربة .. ..

ستكون هناك إمكانية أن يتحرك المصري إلى المحافظة التي يجد نفسه فيها ؛ تجد المحافظة فيه مخلصاً لها .. ..

لا ميليشيات :

أحب أن ارى حواراً يتم الآن في آلية و ميثاق هذا الوجه الجديد لمصر "الفيدرالية المتحدة" ؛ و لتولد بدون حرب أهلية و لا إملاء من قوة أجنبية ..

مانفستو 2011 :

إن ما نعيشه الآن هو محاكمة لنظام الحكم الذي ساد بعد الحرب العالمية الثانية و إعادة الانتشار للاستعمار ..

نحاكمه في لحظة تهاوى هو من نفسه ؛ و فرض علينا هذه المراجعة الشاملة ؛ و هذا منطق الحياة و التقدم ..

اتكلم عن مصر و العالم العربي و ربما العالم الثالث كله ..

لماذا سقط هذا النظام ؟ لأنه فشل .. لأنه هرم .. ماذا كانت أطراف هذا النظام ؟ .. طغمة حاكمة من العسكر برأس طاغية أتوقراطي ؛ و نخبة صغيرة من الكهنة ؛ و قاعدة مغيبة تُقاد كالقطيع ..

امتد هذا الحكم : **(1) بشرعية الاستيلاء على السلطة بالسلاح ؛ و (2) بالخديعة ؛ و (3) بصبر الأغلبية ؛ و (4) خوفهم ؛ و (5) معاناتهم من القهر المنهجي ..**

لم يكن حكم العسكر شريراً ؛ و لكن كان فاشلاً .. فشل في فهم أصول السياسة الداخلية و الخارجية .. فشل في التنمية الاجتماعية و الاقتصادية و مجابهة الفقر و احتياج الناس للضروريات ناهيك عن الكماليات ؛ برغم وجود ثروة موارد تحتاج لاستغلال ؛ و برغم وجود بشر يشكلون ثروة و ليس عبئاً على الدولة .. بعد نصف قرن أو يزيد انظر إلى حال الرعية .. فشل النظام في إدارة الصراع مع إسرائيل و الاستعمار الإمبريالي الجديد .. انظر إلى الشرق الأوسط الجديد .. و لن أطيل في باقي مظاهر الفشل أو العجز عن النجاح .. و افهم أدوار السياسة العالمية و التراث الثقافي في دعم هذه "الجمهورية العسكرية" إذا صح التعبير بغباء شديد أو بدهاء أشد ..

العالم يتقدم و يتغير :

في مقابلة القهر و القمع الأمني يحدث رد فعل معارض و ممانع و مقاوم بدرجة مختلفة ..

ثورة المعلومات و الاتصال تنقل الشرر من بؤرة ثورة أو صراع إلى جهات جاهزة للاشتعال في ثوانٍ .. ..

نجاح "شرعية الشارع" في إحداث تغييرات في أحوال كثيرة متعددة الآليات .. لماذا الآن تنهار هذه "الجمهوريات" العربية ؟ .. لأن السوس نخرها كما أكل النمل منسأة سليمان ؛ و لأنه قد تهيأت قوى "تزق" هذا الكيان الآيل للسقوط ؛ و لأنه أعطى النظام فرصاً و تنبيهات إلى ضرورة الإصلاح و التغيير ؛ و لم يزده ذلك إلا غروراً ..

إن تفجيراً ولو صغيراً ولكنه متناغم مع شقوق البناء يدفعه للانهيار الكلي فجأة ؛ وهذا ما فعله شباب 25 يناير وربيع العرب عموماً .. امتلك الشارع سلطة التأثير ؛ وتفكك الاستقرار المفروض بالقوة وعمت الفوضى ؛ وتعريف الفوضى هنا هو اختفاء العقل لحساب الاحتفال ..

و تنادى الناس الحاجة إلى "التغيير" ؛ و تمادوا في المطالب و كانوا بغير رؤية محددة ؛ هذه هي الفوضى .. كل شئ قابل للمناقشة .. أي شعار يرفع و كل الملفات المحفوظة و المفكرة خرجت إلى النور ..

في حالة الفوضى الشاملة هذه هناك أخطاء ترتكب و ضحايا و قلق و جموح و رومانسية و سلفية و انتهازية .. لا تستمر الفوضى طويلاً ؛ فالنظام هو الأساس في الكون ؛ لابد أن تعود الأوضاع إلى الاستقرار .. و لكن على أسس جديدة ..

الفصل السادس

ملفات الفوضى

ما أهم الملفات التي تسود الفوضى المصرية و العربية ؟

1- ملف التعـــــددية الدينيـــــــة

2- ملف الأمية السياسية للشـــــعب

3- الانتكاسة الحضارية لمصر و العرب

4- الحوكمـــــة الرشيـــدة و غيابها

و المفردات التي تتردد بأصوات زاعقة أو هامسة كثيرة : الحكومة المدنية – الحرية – الديموقراطية – العلمانية – العدالة ؛ و غيرها

تناقش هذه المفردات بمعان مختلفة ؛ و يلزم الاتفاق على تعريفها لتقصير مدة الحوار و الاتفاق .. يلزم مناقشة الأخطاء و النواقص و التابوهات و المحرمات و المؤجلات و المسكوت عنه ..

طريقة الحكم و تداول السلطة و الاشتراك فيه ..

مرجعية التعامل بين الناس ..

حرية الاعتقاد و التدين و قبول الآخر ..

البعد الأخلاقي في العقد الاجتماعي ..

الجوهر الديني المتفق عليه : الله ؛ أم المال ؛ أم الشيطان ..

أنا متفائل .. ..

و أجمل التاريخ كان غداً ..

من موقعي في الطبقة الوسطى المتعلمة و خبرتي بالحياة في مصر ممارسة و دراسة لما يزيد عن خمسين عاماً افهم جيداً ما يحدث و الملح فيه أولاً مناخاً معقولاً للتفكير و التغيير بلا عنف شديد و لا قبول للمسكنات .. الملح فيه ثانياً وضوح الثغرات و الأولويات التي يلزم التوجه إليها فوراً .. الملح فيه مجالاً لمراجعة الفلسفات و التنظيمات .. الملح فيه نداء عاجلاً لمواجهة الفقر و سوء التنظيم ..

أجد في "الفوضى" السائدة فرصة لخلق جديد .. ستطول الفوضى و لكنها لن تصبح انهياراً مدمراً .. عناصر في التاريخ و رعاية الله لشعب مصر تحفظ الهيكل العام للمجتمع المصري .. صلوا برغم الكروب ..

اكتب هذا و قد مضى على انتفاضة مصر ستة أشهر انسحب فيها الفرعون إلى وكره بشرم الشيخ تاركاً السلطة لمجلس عسكري و حكومة مؤقتة ؛ و يتداولون قضايا الانتخابات و الدستور و محاكمة الفاسدين ؛ أي كيف نريد أن نحكم أنفسنا ..

قريباً ستسفر الأحوال على برلمان و دستور و رئيس جديد غير متضح حتى الآن ما هويتهم و ما دينهم ..

قد يشترك في وضع هذه المؤسسات التشريعية الثلاث أكبر قدر من أفراد الشعب المعادين و العاملين بالسياسة ..

و لم تطرح على الناس خطط للإصلاح و التنمية تنتظمهم في نشاط بناء يحارب الفقر و سوء الصحة و تدني التعليم ..

لن ادخل في جدل عن البيضة و الدجاجة ؛ فالعمل على جميع الميادين متوازياً و متفاعلاً هو الضمان للنجاح و التقدم ..

و لن أنسى أن أذكر مرة أخرى بموقع "الله" في السيادة على كل نشاط الكون و حفاوته بالمؤمنين .. المؤمنون يتحلون بالأمانة و يتلقون العون من حيث لا يحتسبون .. و المصريون مؤمنون حتى النخاع ..

ملف التعددية الدينية :

لماذا عاش المسلمون و النصارى هذه القرون الطويلة مختلطين متعايشين ؛ كل ثابت على دينه ؛ لا يتغيرون ..

المسلم المعاصر في الصعيد لابد أن أجداده كانوا نصارى ؛ و قبل ذلك مصريين قدماء .. و قد ثبت ذلك بدراسة الجينوم البشري حديثاً .. هذا أحد الأمثلة لباقي المصريين .. تدين النصارى المصريون أرثوذكسي معتدل ..

يصلي المسلم و النصارى كل يوم و في كل مكان و يجتمع كل فصيل في كنيسته أو جامعه في نهاية الأسبوع و الأعياد ..

ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة .. هذا واجب على كل مسلم ؛ و لكن توقف المسلمين عن دعوة "إخوانهم" النصارى إلى الإسلام لأنه فيهم قسيسون و رهبان ؛ و لم يسجل على "نصارى" أنهم "يبشرون بين المسلمين" .. ..

الموقف العقيدي بين المسلمين و النصارى و غيرهم متروك لله و يرفع الضغط على المؤمنين بضرورة ..

حرب من لا يشاركهم العقيدة : إنما أنت نذير .. و هذا السلام في قبول عقيدة الآخر تحسده علينا مجتمعات كثيرة مسلمة أو مسيحية أو غير ذلك .. ..

نأتي للسؤال في الأنشطة الحياتية إعاشة و تجارة و حرباً ؛ نجد تطابقاً كبيراً بين بروتوكولات الطرفين ؛ "سمن على عسل" .. ..

و يحمي الجميع سلاحهم بعدم الاستفزاز ؛ و بقول الآخر تحت شعار "و إللي في القلب في القلب" .. ..

انظر ماذا يحدث اليوم بعد سقوط ملف العلاقة بين المسلمين و النصارى من على رف الاستقرار إلى شارع الفوضى ..

إن الحوار الذي اشتعل بينهم قليل منه عاقل و أمين و واقعي ؛ و كثير منه "هلضمة" و ابتزاز ..

لابد من أن يأخذ التفاعل مداه حتى تتخلص العلاقة من خبث الأوهام ..

إن توتر العلاقة بين المسلمين و النصارى نتيجة الفوضى السائدة ؛ و هي كذلك معطلة خلق علاقة جديدة سمحة "مصرية" .. إن مناقشة التعددية الدينية و مشاكلها الحالية في مصر يأخذنا إلى دراسة أسباب انهيار "الوسطية" و "المصرية" في طابع التدين الإسلامي و النصراني .. أثر الفقر و الفروق في مستوى المعيشة .. الدعم الأجنبي السياسي و التبشيري على كلا الطرفين .. التدني الثقافي العام لنوعية الساكنين في العشوائيات و الأميين و المتطرفين و "البلطجية" و عبدة الأوثان ..

حينما صلى المسلمون و النصارى معاً في ميدان التحرير أيام الانتفاضة الأولى برز طريق لمقاومة الفتنة .. الأمل في الشباب الخالي من العقد و الذي يتطلع إلى نجاح "الثورة" ..

صلى عمر بن الخطاب في القدس المسيحي ؛ و ذلك لا تثير في أن يبقى "إللي في القلب في القلب" كدفاع نفسي يحفظ للنفوس توازنها

هل كل المسلمين المصريين "إخوان مسلمين" ؛ أياً كانت تعني هذه العبارة من "إسلام سياسي" بدأ من عام 28 بدعوة إلى "الفضيلة و العدالة" ؛ و تاريخ طويل من التدرج في العلاقة مع الدولة أفرز فيهم تشدداً واضحاً وانحرافاً نحو الجهاد والاستشهاد و تطلعاً إلى الحكم؟

هل هو مصري ذلك "الإسلام السلفي" الوافد الطامع في الحكم كذلك و السيطرة على الحياة المصرية ؟

ألهذا يخاف النصارى و الليبراليون و الشيوعيون من وصول هذه التيارات إلى الحكم في جو السعي وراء الديموقراطية و صندوق الانتخاب الآن أو غداً ؟ ..

أليس هذا الاستقطاب السياسي و عدم التوازن خطيئة كان يخفيها الحكم الأتوقراطي العسكري "المنافق" ؟ ..

في الجانب المسيحي ألا يوجد من الاستقرار و العباءات السياسية الجديدة و التسلح ما يريب ؟ ..

و هل التعددية الدينية تقف عند حد تناطح المسلمين و النصارى فقط ؟ ..

إن الفصيل الخطير الذي يصطاد في "ماء الفوضى العكر" هم الملحدون .. إن الإلحاد و عبادة الإله الجديد "المال" هي ديانات خطيرة وافدة على مصر ؛ إنها تتفشى تحت السطح و فوق السطح تحت أسماء جذابة مثل : "العلمانية" و "المدنية" و حقوق الإنسان ..

الله خط أحمر ..

الفضيلة و العدالة مرجعيتهما الدين الإسلامي و المسيحي ؛ و الشريعة الإسلامية سماوية المصدر نجح تطبيقها في هذا المصير و هذا الوادي عبر قرون طويلة ..

ثم إننا نحتاج الله كثيراً خصوصاً في مثل الأزمة الحالية ..

هذه الأرض يورثها الله لمن يشاء ؛ مصر ليست ملك المسلمين و لا النصارى و لا المصريين عموماً ؛ إنها ملك المؤمنين ..

إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوكم أيكم أحسن عملاً ..

إن "التعددية" ثراء للأمة ..

إن أغلبية مسلمي مصر "سنة" موزعين على "طرق صوفية" متعددة ؛ و لا اعتقد أنهم يثقون في الإسلام السياسي الديني أو الشيعي أو "الوهابي" أو "حكم قراقوش" .. إن أغلبية مسيحي مصر هم أقباط أرثوذكس و بعض الكاثوليك و البروتستانت ؛ و موزعون على "كنائس" متعددة .. و المسافات بين أقسامهم متسعة و متجذرة ..

المصريون في الخارج مختلفون من حيث اندماجهم في مجتمعاتهم الجديدة و صلاتهم بمصر ؛ و هذا ملف تحسن مناقشته في "الفوضى الخلاقة" ؛ ففيه سلبيات تحتاج إلى حوار و تعديل و تنظيم لخير الجميع ..

إن التعددية الثقافية بين أقاليم مصر وقبائلها وريفها وحضرها ستؤثر تماماً في الحياة الجديدة ؛ وخير استثمار لها هو المحليات و الفيدرالية

لا ندري على أي أساس ثقافي أو أيديولوجي أو مذهبي ستكون الأحزاب الجديدة ؛ إذا انتظم معظم المصريين في أحزاب ! ..

عقل الأمة (الثروة الأساسية لمصر) ..

هذا ملف خطير يتبلور في ذهني على مدى نصف قرن من التعامل و التخصص في المخ و العقل و المعرفية ..

نولد بمخ ناقص يحتاج سنوات ليزداد وزنه أربع مرات و ليشحن بالمعرفة ..

السنوات الأربع الأولى فاصلة في تحديد مستقبل مخنا و عقلنا .. نضج المخ البيولوجي و ثراء التغذية الثقافية يحددان السقف الذي لا يتجاوزه المخ و العقل و المعرفية طول العمر ! .. ..

في سن السابعة قضي الأمر .. يصعب تعويض ما فات قبل هذه السن ..

نضج المخ و حجم "السلة المعرفية" هو كمية الوصلات العصبية بين خلايا المخ .. ..

وخبرة المخ البيولوجية هي خلية عصبية وأطرافها الداخلية والخارجية ؛ وخلية ضامة تعتني بحاجاتها وشعيرة دموية تحمل إليها الغذاء و الهواء ..

خلايا المخ متنوعة من ناحية وظائفها و مسؤليتها عن الإحساس و الحركة و العواطف و الوظائف المعرفية العليا كالذكاء و حل المشكلات و الابتكار ..

يتفرد مخ الإنسان بأكبر مخ حديثاً أو قشرة المخ مما يمكنه من التكيف والتقدم والبقاء ؛ لا يدانيه في هذه الصفات كائن حي آخر ..

صحة و سلامة و كفاءة هذا "المخ الحديث أو قشرة المخ" يوجب علينا أن نحافظ عليه و نحسن غذاءه و تثقيفه في فترة النمو الأولى داخل الرحم و خارجه ..

صحة الأم و صحة الحمل و قبلها مورثات الوالدين تتركان بصماتها على مخ الجنين و الرضيع ..

غذاء الرضيع و الصبي يقيد تماماً مستوى العقل ؛ البيئة الفقيرة حسياً و ثقافياً تنتج "سلة معرفية" محدودة لا تستوعب ما يعرض عليها في سن المدرسة فما فوق ؛ يقف الذكاء و الابتكار طول العمر .. هذا ما يحدث في معظم أطفالنا و ما يهدد الأمن القومي .. ..

إذا كان الفقر المادي و التنظيمي و فقر الضمير لدى البشر يسمح بنشأة أطفال تحت هذه الظروف الفقيرة فإنه يسمح بل يتسبب في فقر عقول الملايين من البشر لدرجة تجعلهم عاجزين عن مساعدة أنفسهم و خروجهم من دائرة الفقر .. و هكذا يبقى الحال على ما هو عليه ؛ دائرة خبيثة مغلقة ..

بعد هذه المقدمة العلمية الطويلة :

اعرض توصيات عاجلة و عملية و ممكنة لوقف تصحر العقل المصري ..

غذاء الأطفال في الحضانة و المدرسة الابتدائية في مصر يجب أن يدعم – و بالبروتين بالذات – و عناصر معدنية معينة .. برنامج الغذاء العالمي له نشاط في مصر في هذا المجال إرشادي و عملي ؛ و يعرض إضافات غذائية بأسعار رمزية .. لم لا نستثمر في عقل الأطفال بهذه الوجبات .. بيضة مسلوقة أو كوب لبن لكل طفل ؛ هل تكون مشكلة مستحيلة ؟ ..

تطوير التعليم في المراحل الأولى ؛ و اتركها لأخصائي و مسؤلي التربية و التعليم ليسمح للعقل بالنمو و للطفل بعدم التسرب من المدرسة و اكتساب سلوك ..

عار علينا هذه الأمية على كافة مستويات العمر و مستويات المعرفة ..

ملف الأمية :

تتفشى الأمية في جميع مستويات العمر و طبقاته .. بطريقة شاذة و شبه مستقرة .. "الصمجي" هو اللقب الذي يقدم به شباب مصر أنفسهم لسوق العمل في مصر أو في الهجرة .. يدخل ضمن تعريف الأميين من بالكاد "يقرأ و يكتب" ؛ و هم كثيرون ؛ حتى في أعضاء البرلمان ؛ ناهيك عن الأمية الإلكترونية المعاصرة ..

الأمي المصري يعجز غالباً عن حل مشكلات حياته و ترقيتها و يظل أسير العجز و التبعية .. يتسرب التلاميذ من التعليم الأولي الإلزامي ؛ بل و يحصلون على شهادته و هم أميون ! .. ..

الأمية السمة الغالبة لنساء الريف ؛ و الصعيد بالذات ؛ لا اقترح مشروعاً محدداً لمحو الأمية في مصر فكم وضعت تقارير ؛ إنما اطلب استغلال فترة التفكير الناقد و الحماسي في "ميدان التحرير العقلي" .. ادرسوا تجارب كوبا و تونس .. ناقشوا .. اتصور حلولاً أكثر محلية تتنافس فيه "المحافظات المصرية المتحدة" المقترحة .. إنه استثمار عاجل ؛ ومدخل للإصلاح السياسي والاقتصادي والأمني ..

الفصل السابع

لماذا بنك للفقراء ؟

سياسة التعليم :-

أجمع الكل على تدني التعليم على جميع مستوياته ؛ و أبرزها مؤشرات موضوعية مثل ضآلة الإنفاق عليه و تخلف نوعيته و أغراضه و تخلف تنظيمه و فاعليته ..

ناقشوا "التعليم العام للحياة" ؛ و ضمانه لكل المصريين في جميع الأعمار لرفع "نوعية" الإنسان المصري ..

ناقشوا خط تعليم متميز في مراكز تعليم و مراكز بحث متميزة "للخلاصة" ؛ لقيادة الحياة في مصر و تناول قضايا التقدم و المستقبل ؛ مليارات في العلاج في الخارج ؛ و المصريون المهاجرون في كلية أكاديمية و مؤسسة غربية و شرقية ..

الفساد و العجز الإداري لم يجعلنا نتناول هذه القضايا ؛ آن الأوان ..

التدريب لسوق العمل :

من "السباك" المتقدم إلى "جراح القلب المفتوح" يعاني حظنا من سوق العمل في مصر و العالم .. العملية "سداح مداح" و عائدها لغيرنا أكثر منا .. هناك سوق عمل محلي يفتقر إلى الخبرة حتى المتوسطة التي تجعل العامل المصري – سباكاً أو بناءً أو عامل مصنع – غير قادر على منافسة الأسيوي القادم بنظام و كفاءة في عالم العولمة ..

نزف العقل المصري مستمر إلى العالم المتقدم حيث يضمون إلى نعاجهم التسعة و التسعون نعجة العالم الثالث ؛ استقطاب غير عادل

و لكن ذلك له حلول ..

وزارة خاصة في النيلين تدير العملية لصالح 20% من قوة العمل ؛ و تساهم بـ 20% من الدخل القومي للبلد ..

عمالنا يركبون البحر ليلاً من شواطئ رشيد ليلقيهم الموج على شواطئ مالطا جثثاً .. ..

بنك الفقراء (محمد يونس) :

لا يزال هذا النموذج لمواجهة الفقر المدقع يلح عليَّ كلما عنَّ لي التحدث على الفقر و سنينه ..

إنه نموذج عبقري جرى تجريبه بنجاح شديد عبر سنين طويلة في مجتمعات كثيرة أولها بنجلاديش و آخرها الولايات المتحدة الأمريكية

هنا في مصر مقاومة شديدة لمجرد التحدث عن هذا "البنك" و لم يعط فرصة حقيقية لتطبيقه ..

أول مقاوم له البنكيون المصريون و مديرو الصندوق الاجتماعي وأشباهه .. لابد أن لهم وجهة نظر فنية في عدم صلاحيته لنا ؛ و لكني لا أقبل هذا الاعتذار ؛ و ادعو إلى تفهم الفكرة بوضوح ؛ و أدى هذا إلى دعوة د.محمد يونس بنفسه .. فرصة الفوضى الخلاقة لا يجوز أن تمر بدون اقتحام هذا النشاط ؛ ولابد أن عمالقة البنوك المصرية والوزراء المختصين قادرون على "تخليق" نموذج مصري له ..

لقد أعلن د.عصام شرف رئيس الوزراء عن "صندوق" لصالح المشاريع متناهية الصغر ؛ أرى أن أموالاً كثيرة تتدفق على هذا الصندوق من مانحين كثيرين ..

فروق صغيرة بين فكرة البنك عند محمد يونس و فكرة "الجمعية" عند نساء مصر و اللاتي يتعاملن بها بينهن في الملايين ؛ و هذا الفرق الصغير هو أهمية "الاستثمار" و النمو و ليس مقابلة المطالب الاستهلاكية العاجلة ..

إن أضخم شريحة من سكان مصر من الفئة 15 – 25 عاماً ؛ و المقصودة أولاً بهذه المشاريع المتناهية الصغر .. من يحمسهم و يقودهم و يشجعهم على تحمل مسؤلية أنفسهم باستثمار طاقاتهم الرائعة ..

يلي هذه الشريحة النساء المعيلات خصوصاً في الريف المصري حيث فرص الاستثمار المبدع ..

نعود لكلمة "خلاقة" في وصف الفوضى الحالية ..

العمالة الخارجية :

اقصد تشغيل الشباب المصري في أوروبا .. ..

ابدأ بسرعة باستدعاء "وزارة الهجرة في الفليبين" حيث تنظم تدريب و تشغيل الشباب على سوق عمل مدروسة سلفاً ؛ يعود على العائد القومي بـ 20 % .. ..

أوروبا تعلن عن الأرقام المطلوبة في التخصصات المختلفة و تدعو حكومة مصر – و جنوب المتوسط عموماً – إلى تنظيم هذه المصلحة المشتركة لخير الجميع و السلام .. 750 ألف شاب ينزلون لأول مرة سوق العمل كل سنة في مصر ..

اطالب بوزارة تأخذ الموضوع مأخذ الجد ؛ تتولى تدريب الشاب خريجاً كان أو لم يتخرج بعد ؛ و تتعاقد عنه لهيئة مقابلة في إيطاليا أو ألمانيا مثلاً .. يضمن الشاب فرصة عمل آمنة ؛ تأخذ الوزارة نصيبها بكرامة و فاعلية ..

إن لله حكمة في تعدد الأديان والأشكال وصور الحياة ؛ وإجادة إدارة العلاقة بين المتغيرات الكثيرة سابق للكل لأي استقرار وطني أو عالمي ..

الصرف الصحي :

قد يتعجب القارئ من فتح هذا الملف بالذات في هذا الوقت و هذه الظروف ..

و الحقيقة أنه الملف الرئيسي في مأساة الصحة المتدنية في كل مصر عدا القاهرة و الجيزة ! .. ..

إن نسبة المصريين المتمتعين بصرف صحي علمي لا تزيد عن الربع ! .. و الأغلبية تعطي وجهها إلى القنوات و الترع و النيل نفسه و هي تفرغ فضلاتها في مظهر خال من الكرامة و الوعي ملوثين الماء الذي يشربونه ..

تحت أرض مصر خزان من المياة الجوفية "الملوثة ببراز المصريين" ..

مع أن الحل سهل جداً ..

يمكن للفلاح المصري أن يصنع من فضلاته "سماداً عضوياً" آمناً بتكنولوجيا رخيصة و مقبولة .. و النماذج متوافرة بوزارة الري ..

إنه "لاترين" ذو خزان يحول الفضلات بالتخمر في مدة قصيرة ؛ و لا يخرج منه ما يلوث الخزان الجوفي أو القنوات أو الحقول ..

يقضي هذا النظام على تلوث مياه الشرب ؛ و يقضي على أمراض الكبد و الكلى التي تكلفنا الكثير ..

إن النظام الذي أدخل الكهرباء و التليفزيون إلى 99 % من بيوت الريف كان يفرض صورة الرئيس و برنامج تحديد النسل .. و لم يهتم بتغطية الريف و الحضر كذلك بالصرف الصحي و مياه الشرب النظيفة على مدى ستين عاماً ؟ حتى لقد غرقت القاهرة و الجيزة في مياه المجاري ؛ و لم ينقذنا من هذا التدني في البنية الأساسية إلا رشوة من أمريكا و إنجلترا لدعم عملية سلام كامب ديفيد ؛ و كانت الرشوة نظامين للصرف الصحي بالقاهرة و الجيزة ..

إن العشوائيات التي نبتت في القاهرة و الجيزة أخيراً كانت ممن هاجروا من الريف المحروم من أبسط مقومات الحياة الإنسانية اليومية و هي الصرف الصحي !

هذا ملف للتنفيذ الفوري و مردوده هائل على الصحة و التنمية بل و الديموقراطية ..

و يرتبط أيضاً بالتحول إلى الحكم المحلي المقترح (محافظات مصر المتحدة – فيدرالية) ؛ فسيكون بإمكان الشعب التعاون مع حكامه المحليين المنتخبين في تدبير حاجات الناس من الحقوق الإنسانية البسيطة مثل الصرف الصحي و مياه شرب جارية نظيفة ..

إن أي ارتفاع بمستوى الحياة للبشر استثمار حقيقي و ليس ترفاً ..

إن توقف الفيضان الذي كان "يغسل" الريف و النيل و الحوض الجوفي نبكي على غيابه ..

الفصل الثامن

زهيمر كبار السن

بعد 25 يناير

ملايين المصريين عبروا الستين مؤخراً بعد رحلة شاقة ؛ و على كتفهم قليل من المال ؛ و تهتز مشيتهم من قليل الصحة و اللياقة ؛ و إلى عالم جديد جداً غير مستعد لاستقبالهم في مصر ..

يجاهدون للبقاء معزولين مهمشين خصوصاً إذا أظهروا الضعف و الحاجة إلى الدعم و التكافل .. و حائرين بين رعاية أسر مجهدة بضرورات الأجيال الأخرى و حكومة مثقلة – أو تقول كذلك كذباً – و بأولويات أخرى ..

و المجتمع المدني "بالله السلامة" ..

و لأنني في ملف "وزارة للمسنين" أوضحت أنه من هنا نبدأ للتخطيط و الإشراف على استراتيجية الجهد القومي لرعاية و تنمية و حماية المسنين ؛ فإنني افتح ملف التحدي الخطير للأمة بتراكم و تزايد المسنين ؛ و معهم مشاكلهم الخاصة و أخطرها .. "الزهيمر" هو المرض الديموقراطي المأسوي الذي وصل و أصاب المسنين ؛ و فاغر فاه لأجيال الشباب الحالية التي في طريقها إلى حظيرته ..لابد أن يعي الشباب بألزهيمر و الدمنشيا لدورهم فيها كرعاة رسميين و عائليين ..

و لأهمية أن يستدعوهما من الآن لتحصين أنفسهم ضد الاحتمال المؤكد لنسبة عالية متعاظمة من كبار السن و كبار كبار السن ؛ ترفع الحياة عند المولد ؛ و عند الخامسة و الستين يرتفع و ترتفع به نسبة و شدة الإصابة بالدمنشيا .. الدعم يتناقص مع الزمن و التحولات الاجتماعية و الاقتصادية ..

أرجو ألا يستمر إهمال قضية الزهيمر و الدمنشيا كقضية صحة عامة و حقوق إنسان مع السياسيين الجدد المتصدرين جبهة التغيير ..

معوقات التحول الديموقراطي :

إنني اعتقد أن التحول الديموقراطي الكامل صعب جداً في مصر ؛ و اصطدم بهذا المطلب كثير من "المصلحين" ؛ آخرهم طبعاً جمال عبد الناصر ..

و تاريخ الحكم في العالم قديما و حديثاً ليس فيه كثير من الديموقراطية .. **معظم الحكام كانوا طغاة** ؛ حتى ما تزهو به بعض الجمهوريات و الملكيات الحديثة من مساحة كبيرة للديموقراطية معيب بكثير من الدجل السياسي و الحلول الوسط و الائتلافات ..

فهل تستحق الديموقراطية وضعها على أعلى قائمة مطالب الجماهير و من يدعون أنهم يتكلمون بأصواتهم ؟ ..

لقد "أصبح" الحكم ديموقراطياً في معظم الدول في أعقاب صراع دام بين اتجاهات و مصالح مختلفة ..

هامش : ليس لدينا جماعات متنافسة على القمة غير "الأهلي و الزمالك" ؛ و الحكام يضيقون المسافة بينهما ..

الأوتوقراطية (حكم الفرد) شائع في السياسة المصرية من البيت إلى قصر الحكم ..

شئ في الجغرافيا و التاريخ و الاقتصاد و الأمن القومي كان يكرس لحكم الفرد هذا ؛ و لو كان أجنبياً ؛ و ما أكثر الأجانب الذين حكموا مصر و حكموا العالم من مصر ..

اختلف المؤرخون على نجاح الأوتوقراطية في نماء و رضاء الشعب المصري ؛ و لم يختلفوا على أن المصريين نادراً ما ثاروا (بخير) على حكامهم ..

الديموقراطية انتشرت ككلمة بعد الاتصال مع الغرب الحديث حديثاً ..

جرب المصريون عناصر من "الديموقراطية" من حين لآخر و على استحياء شديد ..

و لم تأت الحركات الديموقراطية بخير يذكره المصريون و يحمدون الديموقراطية على ذلك !..

و تظل الأوتوقراطية أو حكم الفرد هي هي ..

على "الثوار" مناقشة الأمر بلا خجل و لا حساسية ..

أرى ألا نتوقف طويلاً نناقش الحكم للفرد أم للشعب ؛ فهذا جدل عقيم في الوقت الحالي ..

و ليست معوقات التقدم هي عدم وضوح نظام الحكم أيديولوجياً ..

أهم معوق للتقدم هو "الكسل" ؛ و انتظار الفرج من الله ؛ و السماء لا تمطر ذهباً و لا فضة .. أخطر داء "سياسي" للإنسان المصري قديماً و حديثاً هو "السرقة" .. سرقة قبور الأوائل ؛ و ما في "جيوب المعاصرين" .. و المجتمع متسامح جداً في هذا ؛ و مشارك .. يعتبر هذا نوع من "توزيع الثروة" في غياب – و حضور – نظم عدالة اجتماعية ..

و من يتق الله يجعل له مخرجاً .. ..

و يرزقه من حيث لا يحتسب ..

الفصل التاسع

لماذا وزارة للمسنين ؟

ملف عزيز عليَّ كتبت عنه كثيراً في العهد البائد ؛ و لم يتلفت إليه أحد ..

لماذا وزارة ؟ .. لأن مشاكل كل المسنين متعددة الاتجاهات ؛ لا يصلح حلها في المواقع المختلفة من صحة و إسكان و نوعية حياة إلخ .. لأن هذه العناصر متشابكة يلزمها حلول تكاملية ؛ و لأن استراتيجية رعاية المسنين و تنميتهم تحتاج للبحث عنها و تطبيقها إلى ميزانية و أطقم متخصصة ..

اتعشم أن يكون "الثوار" الجدد أكثر حساسية لقضية المسنين ؛ و أن يكون إجراء "الفوضى الخلاقة" أنسب لمناقشتها من جو "الاستقرار و الاستمرار" ! .. لا أمل من أن أنبه مجتمعنا و قد عج بملايين المسنين عدداً ؛ و نسبة من الكل .. لا يصح تجاهل هذه الفئات خصوصاً و هي تزيد ؛ و تقلب موازين العلاقات الاجتماعية و السياسية في العالم أجمع .. إنها قضية حقوق إنسان أيضاً ..

اكتب من موقع مسؤلية ودراية نشأ من 30 سنة خبرة بهم ..

هداني الله وأنا أعود إلى الجامعة بعد خدمة الجيش عام 1976 إلى اقتحام مجال صحة المسنين ؛ وكانت غائبة تماماً عن مصر والعالم العربي ..

و كان التحرك في مناخ الجامعة مواتياً غير ممانع و غير ملتزم .. أجج هذا القصد أحلام الوصول إلى لندن "حيث البلاط في الشارع من ذهب" .. و كانت بالفعل قلعة رعاية المسنين ؛ و يحج إليها العلماء من كل صوب .. سهل الله لي الوصول إلى لندن 1977 و انتظمت في دراسة طب المسنين في جامعاتها و مراكزها الطبية ..

احتفى بي أستاذ التخصص في جامعة برمنجهام ؛ و هو اسكتلندي يهودي صهيوني التوجه ؛ و في أثناء دراستي معه فجر السادات قنبلة السلام بذهابه إلى القدس ؛ **و قد ترقرقت عينانا بالدموع ؛ و أنا العائد من الحرب و القادم للاستعداد للسلام** .. زاد من إعجابه بي نظرتي المستقبلية كمصري لا تعطي بلده مجالاً لطب المسنين باعتبارها أمة شابة .. كان معنا أستاذ صحة عامة من الولايات المتحدة يؤسس هو الآخر لطب المسنين في أمريكا .. مع الفارق بين بلدينا .. و لكن ثبت أن مشاكلنا متشابهة ؛ و قد تعاونا فيما بعد على الترويج للتخصص في بلدينا بمنحة من هيئة الفولبرايت للتبادل الثقافي ..

و لقد بدأت في الانخراط في حركة طب المسنين عالميا 1978 – 1980 قبل العمل في مصر ؛ و أنشأنا الجمعية العالمية لطب نفسي المسنين ؛ و استضفت أول اجتماع عالمي تأسيس لها في القاهرة ! في عام 1982 .. و كان هذا المؤتمر منصة لإطلاق طب المسنين في مصر ؛ و لا تزال هذه الجمعية شابة بعد ربع قرن ..

لا أذكر أسماء خوفاً من نسياني بعضها و ما أكثرهم ؛ و أسست الجمعية المصرية لصحة المسنين عام 1984 ..

و كانت المنصة الثانية التي حملت بذرة وحدة طب المسنين بكلية الطب جامعة عين شمس التي نمت حتى جاء وقت قسم أكاديمي كامل لطب المسنين و علوم الأعمار 1995 ..

اتوقف لحظة لأشكر الله على عونه لي و أنا آخذ في نفس الوقت بالأسباب ..

هذا درس للشباب ..

منذ 1977 حتى اليوم لا تغيب عن عيني الأهداف ؛ و لم افقد الصبر و لم أتنازل و لم أقبل "الحلول الوسط" ..

جائزتي حصلت عليها باستمرار و أنا أرى مشروعي يكبر و ينتشر و يؤتي ثماره ..

صحة المسنين و رعايتهم و طبهم الآن على كل لسان في مصر ؛ و انتشرت مبادرات متعددة في الخدمة و التدريب ؛ حتى الحكومة دخلت الميدان على استحياء في وزارة التضامن و وزارة الصحة ..

لقد حققت ما يمكن أن أضعه أوسمة على صدري و اجلس في الظل استريح و قد أوغلت في العقد الثامن ..

و لكن الطريق ما زال طويلاً و أخشى أن تنطفئ الشعلة إذا لم يرفعها أحد دائماً من الشباب ..

إن لدينا من البنية التحتية في مجال المسنين ما يستدعي وجود "وزارة المسنين" لماذا ؟ :–

–1– للاستعداد لهجمة المسنين القادمة

–2– للتكفير عن إهمالنا للملايين من المسنين و رعاتهم الذين بحاجة إلى دراسة و تنسيق و تمويل عاجلاً ..

–3– لاستثمار طاقات المسنين لتمكينهم من رعاية أنفسهم بالتعلم و بشراء الخدمة ..

إن نسبة الإعالة (الصغار + الكبار المجموع) عالية جداً ..

و من سمات النظام الذي انهار أو أولي الأمر فيه و أصحاب القرار كانوا شيوخاً محدودي المعرفية و الدافعية ..

أخشى أن تمر فرصة الفوضى الخلاقة بدون إضافة حقيقية لصحة و تنمية المسنين لأي وزارة مركزية أو محلية ..

بعض المحافظات المقترح إنشاؤها تشكل جنة الفردوس للمسنين المصريين و السياح ..

الفصل العاشر

عبد الناصر مفجر الثورات

بدأ إدراكي به في بداية دراستي للطب أول الخمسينات .. حضرت حريق القاهرة في يناير 1952 ؛ و لم أجد له فهماً واضحاً و لا استبشرت به .. ..

عاجلتنا أحداث الجيش يوليو 52 ؛ و امتزاج الأمل في المستقبل بالخوف من المجهول ..

الاستقرار السريع للسلطة في أيدي "الضباط الأحرار" أفزعني ..

حملات التطهير و الثورة "البيضاء" أفزعتني ؛ و خرجت مبكراً لفهم واضح للثورة و حكام مصر الجدد ..

خصاء تام لأي نشاط سياسي أو مجتمعي ..

و على من يفكر أن يهاجر أو يدخل التعذيب و السجن .. كان سهلاً عليَّ أن اتجنب "شر" الثوريين ؛ فلم أكن منتمياً إلى حزب أو حركة سياسية .. شكراً لوالدي الذي طفشني من ذلك مبكراً ..

حرب 56 كشفت ديماجوجية عبد الناصر ؛ و وقوعه "فريسة" للحرب الباردة ؛ و كان يظن أنه يلعب على حبالها ..

لعله تلقى درساً مؤلماً في حرب 48 ؛ و لكنه بالتأكيد لم يتعلم كثيراً .. ..

داخلياً أشاع الفوضى السياسية ؛ و أوقف التنمية السائدة ؛ و بنى قطاعاً عاماً مهزوزاً على أنقاض قطاع خاص ناجح ..

ترك الشارع المصري يهتف له خوفاً و طمعاً ..

أفسد التعليم والجامعة والثقافة باستبدال الجيد بالميديكور ؛ بالهزيمة التي أسماها نصراً في 56 ؛ أدرك الناس أن المعارك بدأت وستستمر

لم يكن محارباً شجاعاً أو ذكياً أو عبقرياً أو ذا كرامة ..

عسكرياً لم يصنع جيشاً عصرياً مرتفع القامة .. ..

مشاكل السلاح و تدبيره و استيعابه ؛ و البشر و تجسدهم و ضمان ولائهم له ..

تكتيكة المصري السادح ثم الفلسفة .. لم يكن قادراً على تفعيل العدوان اللازم الكافي للصراع .. لفرويد نظريات عميقة في هذا ..

و لم يشفع له أنه "انكوى" بالصراع ؛ و تجرع غصة الهزيمة تكراراً ؛ و كان يسمي ذلك "نكسات" ؛ و كان لأعدائه تكتيك مثل "صراع الثيران الأسباني" ؛ يثخنون الثور بالجراح و لا يجهزون عليه ؛ ربما ليتعلم منه ناس مستهدفون ؛ و ربما للتلذذ بمنظر الثور الجريح النازف ؛ و حتى عندما أرادوا اصطياد الديك الرومي عام 1967 و التعامل مع "نمر من ورق" لم يعطوا له فرصة الموت في الميدان شهيداً ..

كان عدوانه للداخل أكثر منه للخارج ؛ عاش جريحاً من 56 إلى 69 يلعق جراحه ..

لم يتعمد أحد بالداخل أن يتخلص منه أو يبتزه ..

بل ربما كان التشفي أوضح عنصر الصراع مع الغرب و الاستعمار القديم و الاستيطان الصهيوني الجديد شفع له ..

أعذره الكثيرون ؛ ضلله التصفيق و التهليل ؛ وإن كان "عام" فوق موجة التحرر من الاستعمار القديم فإنه غرق" في مشاكل الدولة المستقلة حديثاً .. إدارته للصراع العربي الإسرائيلي كانت فاشلة من جهة الاستراتيجية والأدوات والمعارك ؛ ومن جهة الـ " onr emp" ..

أين كنت أنا من هذا كله ؟

57 عام التخرج ؛ تكاتفت قوى طاردة من المجتمع المدني المصري لإهمال الثورة الجامعة ؛ و قوى جاذبة في اتجاه المؤسسة العسكرية .

تطوعت في جيش عبد الناصر و لم أكن مطلوباً للتجنيد ..

قال زميل : "الجيش أوله حسن و آخره سيئ" ..

دور "ولي العهد" و نداءات الملك الأسري دفعتني دفعاً إلى الخدمات الطبية للقوات المسلحة ..

أمل أو خيال للدورات العليا و السفر للتعليم في الخارج ..

ماهية بداية مناسبة لطبيب حديث يتيح له أن يبقى مكانه و يحصل أساسياته ..

حتى الزواج ممكن عام 1964 ؛ معظم الضروريات مدعومة أو محكومة ؛ و "لابس الكاكي" يحصل على الكثير ..

ولدت مرتين ..

الثانية في يونيو 67

و أنا عائد يوماً من الهول العظيم ؛ لخصه قائدي المخضرم المحنك : "الراجل الكبير غلطته كبيرة" .. فلتتغير سياستي معه ؛ كنت أبرر قراراته و هو يقود ؛ كنت وضعت نفسي في بؤرة قراراته العظيمة (القوات المسلحة) ؛ لم اندم أنني دخلت برجلي خدمة عسكرية ؛ فكان لها مبرراتها لدي : أحسن وظيفة بعد الجامعة التي تطبق علينا بفرص "النيابة" و التخصص ؛ عبد الناصر يبني جيشاً حديثاً بعد أحداث 1956؛ و يهمل الجامعة و يلوح بفرص السفر للمتطوعين الجدد ..

بعد ذلك جرت الرياح بما لا تشتهي السفن ؛ فلا سفر و لا فرصة عملية للنمو المهني و لا اختيار لإنهاء الخدمة لمدة 18 سنة متتالية .. و أنا واقف في ممر متلا منبطحاً على التل الجنوبي لمنتصف الممر ؛ و طوابير الآليات العسكرية المصرية يتصاعد منها دخان إليَّ .. لم يسعفني لتقبل الموقف غير الهزل و السخرية ؛ فما يحدث من سخرية القدر المفهومة .. لعل التفاصيل في موضع آخر

و لكن انقلاباً كبيراً حدث في علاقتي بعبد الناصر و النظام كله .. من هذه اللحظة سأعتمد على نفسي ؛ و لا أثق في وجود أب لي أصدق أحكامه .. لن أكرهه و لن أدينه .. فأنا أراه أضعف مني و أحوج للشفقة ..

و أنا مثله أضعت الكثير الذي حشدته وراء عبد الناصر ..

ثقة كاملة في النفس و قدرتها على التفكير المستقل و التخطيط و العمل بل و القيادة ؛ و لم لا ؟ .. ألم أتسلح به بدبلومين (بينما كان غيري يجري وراء المال) .. ألم أنجز الجزء العملي من رسالة دكتوراه مسجلة في جامعة عين شمس ؛ وفي إنهائها طمع في السفر للخارج ؟

ألم يحفظ الله حياتي و عقلي و سط هذا الهول ؟

لم أكره القوات المسلحة و خدمتي المتواصلة حيث التفكير في المغادرة خيانة ؛ و إلقاء اللوم و جلد الذات معوقات لإزالة آثار العدوان كما سماها عبد الناصر ؛ بل شاركت في الجولة الجديدة (حرب الاستنزاف و الإعداد لجولة العبور) ..

خطان متوازيان أفعالي و أفكاري كانا يجريان : استكمال الدكتوراه من جامعة عين شمس (بعد الشفاء من أوهام السفر) و المحافظة على إمكانية الخطوة التالية و هي الانتقال إلى الجامعة بعد الحرب ..

و كم تطلب هذا من تكيف و تخطيط و اتكال على الله و شراء لقلوب الجامعيين ؛ و الخط الآخر هو تقريب لحظة إنهاء الخدمة العسكرية بعد انتهاء آخر الحروب كما وصفها أنور السادات ..

نجحت في أن اجعل فكر الجامعة و فكر الجيش يلتقيان في أحقيتي في أن "انقل موضع خدمتي" و منطقية ذلك ؛ و المصلحة للجميع من ذلك ..

تفاصيل كثيرة لكيف تحقق ذلك ؛ ليس هذا مقامها ..

و لكنني ولدت فعلاً من جديد يونيو 67 ..

الفصل الحادي عشر

حكاية طبيب في الحرب

مما بقي في ذكرياتي عبر 75 عاماً ..

في بني سويف أواخر الثلاثينات مازلت أذكر إجراءات الدفاع المدني : كشافات تجوب السماء ؛ و صفارات إنذار ؛ و نداءات بـ (طفي النور) ؛ و مهاجرين إلى الصعيد من محافظات الشمال ..

في المنصورة في السنين الأولى من الأربعينيات : أخبار الحرب على صفحات الجرائد ؛ و بوسترات الدعاية على الحوائط و المخابئ في الأرض الفضاء ؛ و كوبونات الطعام و الوقود ؛ و أخبار القنبلة الذرية (بيضة لقتل 7 آلاف) ؛ و وقف القتال و انتهاء الحرب ..

قصيدة في الحرب

اطفي النور

صياح أطفال في شوارع بني سويف .. كشافات تتقاطع في السماء ؛ و أزيز طائرة تقترب و تبتعد عن صفارة أمان . ..

رذاذ الحرب طال الدلتا والقاهرة .. مهاجرون إلى الصعيد و قلب الدلتا ؛ والعاصمة تعج بالجنود الإنجليز ؛ والحلفاء إلى الأمام يا روميل

و خنادق في "خرابات" المنصورة ؛ و ملصقات "إرجاع المارد إلى القمقم" .. و البطاقات و الكوبونات .. أخبار الحرب على واجهات الصحف .. و مصر تعلن الحرب على المحور !! .. القنبلة الذرية الأولى بيضة تقتل 70 ألفاً .. أغنياء الحرب و صناعة العهر مؤمنة لجنود الاحتلال ..

و مصر تدين إنجلترا و تتفوق على الاسترليني .. الهدنة و انتهاء الحرب في برلين .. حرب فلسطين ..

عريس ابنة خالي شهيد .. فتيات لاجئات من غزة حاملات في سوق الخضر ..

يسقط وعد بلفور .. و يخرج طابور الصباح في مظاهرة يفرقها البوليس ..

تجري إلى مكتبة البلدية بأسيوط .. ثورة الضباط يوليو 52 تبدو كامتداد لخيبة الجيش المصري في فلسطين .. تحرير فلسطين أصبح الهم الأكبر .. طلب الضباط من الناشط أن يترك له الساحة السياسية .. العسكر في الحكم ..

حمل الشباب السلاح في 56 و بعد "الانتصار" سحب العسكر السلاح .. بعد 56 ساد جو المعركة البلاد .. وظيفة في الجيش تبدو أكثر بريقاً من غيرها ..

وظائف الجامعة محدودة محدودة .. والهجرة باب يشفط الخريجين .. والأب يدفع بطريق الجيش .. وحظوظ المستقبل تصبح أكثر وضوحاً ولي العهد

رشحه وصوله الفاتح و نجاحه المستقر الواعد .. يمارس دوره في حياة الملك و يضع يده على قلبه خشية غياب الملك ..

و يدعى إلى العرش و ليس بيده صولجان ..

الأم الملكة لها رأي آخر ؛ و تتعقد العلاقة .. العبء كبير ..

و الطريق طويل ..

و تعاد كتابة الأدوار .. العمل مع الملك كان أهون و كان مشروع الأم أقسى و أعمق ..

أدى الملك ما استطاع و مضى .. لم تكن حياته سعيدة و لم يورثنا الرضا و الأمان و الأمل ..

كان فخوراً بأنه تعلم و توظف ؛ و لكنه كان يأسف أنه لم يتخرج من الجامعة .. وجد نفسه في العمل مع الإنجليز ؛ و أصابته خيبة الأمل مع المصريين ..

تجنب السياسة :

و هذا كلفه ركوداً في الترقيات .. كل حزب يرقي أنصاره و هو في قائمة "المنسيين" .. أخذت عنه تجنب الحزبية .. قرأت للإخوان ..

و قرأت للاشتراكيين و لكن لم أجد نفسي في حركاتهم و جاءت الثورة ..

و قيل لنا اتركوا السياسة لنا ؛ و لم يكن هذا جديداً عليَّ ؛ و فقدت إمكانية العمل العام إلى الأبد ..

الترقي في العلم و المؤهل هو طريق الصعود ؛ و حتى البقاء ؛ التفوق في الطب طريق يأخذني بكل جوارحي ..

قد يأخذني إلى وظائف محترمة كأستاذ جامعة .. قد يعمر لي عملاً و رزقاً مضموناً فيه الابتكار و الخدمة ..